شعر الراعي النميري: رؤية لجوانب خفية

إعداد

د/ منيرة بنت عبد الرحمن الطويان

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية اللغة العربية والدراسات الاجتماعية

جامعة القصيم

The Poetry of Al-Ra'i Al-Numairi: A Vision of Hidden Aspects

by

Dr. Munira bint Abdulrahman Al-Tuwaian

Department of Arabic Language and Literature

Faculty of Arabic Language and Social Studies

Qassim University

Email: mtoiean@qu.edu.sa

الراعي النميري

هو عُبَيد بن حُصين بن معاوية بن جندل بن قَطَن بن ربيعة بن عبد الله بن الحارث بن نمير بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن خَصفة بن قيس عيلان بن مضر[١].

والراعي شأنه شأن أغلب الشعراء والأعلام لا تسعفنا المصادر بأخبار وافية عن ولادته ونشأته ووفاته وكثير من أخباره؛ ولذلك اختلفت الأقوال حول سبب لقبه بالراعي[٢]، وحول كنيته [٣]، وتاريخ وفاته وأسبابها [٤].

ولا تصلنا أخبار الراعي إلا بعد رحلاته إلى البصرة وانتجاع أمراء بني أمية، والمرجح أنه في نشأته كان مع قومه بالبادية في مساكنهم باليمامة في نجد، والقارئ لشعره يستشف أن الشاعر عاش شطرًا كبيرًا من حياته بالبادية ويظهر ذلك في لغته وصوره،

---

[١] الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، شرح أ. علي مهنا، أ. سمير جابر، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ –١٩٩٢م : ٢٤ / ١٦٨.

[٢] ينظر مثلا: الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ت أحمد شاكر، دار المعارف: ٤١٥، الأغاني: ٢٤ / ١٦٨، تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، تحقيق عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م: ٣٨ / ١٨٥، وفي دراسة علي المحاسنة (الراعي النميري، حياته وشعره ، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة اليرموك، ١٩٨٦ م) دراسة ضافية وعرض لاختلاف القدامى حول جوانب كثيرة من حياة الراعي، كلقبه، ووفاته، الصفحات: (١٧ . ٢٠).

[٣] انظر: الأدب الأموي، د. خليل أبو ذياب، دار عمار – عمان، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٦م: ١١٣، ١١٤.

[٤] يرجع (الراعي النميري: حياته وشعره، علي المحاسنة) ص: ٢٠، ٢١، مقدمة الديوان (شرح د. واضح الصمد) ص: ٢٩ . ٣٢، الأدب الأموي د. خليل أبو ذياب: ١١٥.

والأخبار المتفرقة التي وصلتنا احتفظت بصورة خلقية كريمة كان يتمتع بها[١]،كما تحدث المؤلفون عن مكانته الرفيعة في قومه[٢].

وهكذا جمع الراعي بين راية الشعر والسؤدد والشرف والمكانة الرفيعة، ولذلك لا غرو أن يتزعم الدفاع عن قبيلته؛فالمتصفح شعره يرى أن ذاته اختفت في روح القبيلة، وأن الأنا ذابت في شيء أكثر أهمية عنده من مطالبه الخاصة، واشتهر موقفه مع عبد الملك في عدم يأسه وإصراره على حقوق قومه حتى وصف بالعبارة الشهيرة:"هو الذي يخطب الدراهم حتى أتتْ قومَه"[٣].

شعره: هناك اتفاق بين النقاد على أن الراعي من الشعراء الكبار لهذا العصر؛ فابن سلام جعله في الطبقة الأولى من الشعراء الإسلاميين[٤]، وأطلق بعض النقاد لقب الفحولة عليه[٥]، وإن كانوا

يرون أنه افتقد هذه الصفة بعد هزيمته أمام جرير[٦]؛ فعجزه عن الرد على قصيدة

---

[١] الأدب الأموي، د. خليل أبو ذياب : ١١٤، ١١٥.

[٢] ينظر مثلا: طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، شرح محمود محمد شاكر، شركة القدس، القاهرة: ٢ / ٥٠٢، الشعر والشعراء: ٤١٥.

[٣] طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٥٠٧، تاريخ دمشق: ٣٨ / ١٨٧.

[٤] وقد أثار هذا التصنيف كثيرا من النقاشات عند النقاد قديما وحديثا، ينظر مثلا ما نقله الأصفهاني عن أبي عبيدة وابن سلام والأصمعي الأغاني: ٨ / ٧، وحول مكانته عند النقاد ينظر: فحولة الشعراء الأصمعي، قدم له د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ – ١٩٧١م: ١٢ خزانة الأدب، البغدادي، ت عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م: ٣ / ١٥١، تاريخ دمشق: ٣٨ / ١٨٥).

[٥] الأصمعي يرى أنه ليس بفحل، وإن كان يرى أن شعره أشبه بالقديم (فحولة الشعراء: ١٢).

[٦] ينظر: طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٥٠٣ ، الأغاني: ٢٤ / ١٦٨.

قصيدة جرير الدامغة بنقيضة تقارن بها جودة أخره فنيا وأفقده بعض مكانته الشعرية.

وقد جمع الراعي المكانة الفنية الراقية التي نالها شعره، وما عرف به من دقة الوصف وتجويد العبارة والصور المبتكرة مع الأسلوب الرصين والبعد عن التكلف والصنعة وتجنب المعاضلة، إضافة لذلك فالراعي يعد حجة في النحو واللغة، وأشعاره كانت مرجعا علميا نالت ثقة العلماء واللغويين على وجه الخصوص؛ فأكثروا من الاستشهاد بها[١].

قبيلته: يرجع الراعي إلى القبيلة العريقة قيس عيلان من ولد مضر بن نزار بن معد بن عدنان، [٢]، وقيس ذات شأن عظيم من الناحية الحربية حتى غلب اسمها على مضر، فيقال بنو قيس والمقصود مضر[٣]، وكانت القاسم المشترك في الخصومة القبلية في العصر الأموي؛ فقد خاصمت تميما وهي مضرية مثلها، وكانت لها خصومة مع تغلب وبكر وهما عدنانيتان، وهناك أيضا خصومات طويلة مع كلب واليمنية بعامة[٤]، وأسباب هذا الخصام كثيرة، في بادئ الأمر كانت تدور حول المصالح الاقتصادية في الرعي وغيره بعد نزوح كثير من عشائر قيس من الجزيرة إلى الشمال ومزاحمة كلب وأخواتها اليمنية في الشام وقبيلة تغلب في الجزيرة[٥]، وسرعان ما تحولت هذه الحرب بين

---

[١] يستشهد ابن منظور بأكثر من أربعمائة بيت من شعره، إضافة إلى أبيات منثورة في كتب مختلفة مثل شرح الحماسة للتبريزي وخزانة الأدب، وفي معجم البلدان ما يزيد على مائة بيت لكثرة المواضع التي في شعره، فضلا عما نجده في كتب البلاغة والأدب أمثال كتاب النقائض والأغاني (ينظر: مقدمة ديوان الراعي، شرح د. واضح الصمد: ١٦).

[٢] جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة: ١٠، ٢٤٢.

[٣] الدولة الأموية، د. يوسف العش، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ -١٩٨٥ م: ٢٠.

[٤] اتجاهات الشعر في العصر الأموي، د. صلاح الدين الهادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى الأولى ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م: ٢٤٢.

[٥] العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الحادية عشرة: ١٥٠.

الجماعتين من تصادم اقتصادي إلى تحزب سياسي؛ ذلك باختلاف الميول السياسية بين قيس وغيرها من القبائل؛ فقيس كانت تقف في الصفوف المعارضة للحزب الحاكم، والقبائل اليمنية وتغلب العدنانية كانت موالية للأمويين، وهذا الاختلاف السياسي كان سببا في قيام حروب كثيرة في العصر الأموي بين هذه القبائل وبخاصة بين قيس وتغلب.

والتقصي التاريخي لمعاداة الأمويين يرجع بنا إلى أيام عثمان والصراع بين علي ومعاوية؛ ف"في الظاهر كان علي ومعاوية يقتتلان، وفي الباطن كانت القبائل تتكتل حسب خصوماتها الجاهلية؛ فمعاوية معه قضاعة وكلب اليمنيتان ومعه تغلب، وعلي معه قيس "[١]، وبعد أن استتب الأمر لمعاوية اتجه إلى استمالة اليمنية ليعتمد عليهم وعلى بعض نزارية الشام في تثبيت ملكه، وصار له حزب يظاهره على أنصار عليٍّ وعلى جمهرة قيس، وانقسم العرب بذلك إلى كلبية – أنصار معاوية ومن بعده – وقيسية – أنصار علي ثم ابن الزبير – أو إلى يمنية ومضرية [٢]، واستمرت قيس في مناصرة الحزب الثائر على بني أمية، ولذلك كانت موالية لابن الزبير[٣]،، وكانت هي التي حركت أمير دمشق الضحاك بن قيس للدخول في صدام مع الأمويين وكانت سببا مباشرا في موقعة مرج راهط[٤]، هذه الموقعة التي أرست حكم بني أمية ومهدت لسقوط ابن الزبير من جهة، وأشعلت فتيل حروب متواصلة بين قيس وتغلب كما سيأتي.

---

[١] التطور والتجديد في الشعر الأموي، د. شوقي ضيف، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثانية عشرة ٢٠٠٨م: ١١٠.

[٢] أدب السياسة في العصر الأموي ، د. أحمد محمد الحوفي، دار القلم – بيروت: ٤٥٧.

[٣] السابق : ٤٦٠.

[٤] مرج راهط معركة وقعت بين الأمويين بقيادة مروان بن محمد وبين أنصار الزبيريين بقيادة الضحاك بن قيس، وانتهت بانتصار الأمويين وتثبيت دعائم حكمهم، حول المعركة ونتائجها ينظر (أنساب الأشراف، البلاذري، تحقيق د. سهيل زكار ود. رياض زركلي، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م: ٦ / ٢٦٩، تاريخ دمشق: ٢٤ / ٢٩٢، خزانة الأدب: ٢ / ٣٧٣، وغيرها)

عشيرته: والشاعر ينتمي إلى بني نمير بن عامر بن صعصعة[١]، وذكر ابن حزم ولد نمير فقال:"ضِنَّة، وكعب، وعامر، والحارث، وفيه شرف بني نمير"[٢]، والراعي من بني عبد الله بن الحارث، مما يعطينا صورة عن شرف نسب الراعي.

وتعد بنو نمير من القبائل الكبرى؛ ولها صفة خاصة لا تشاركها فيها إلا قبيلتان أو ثلاث، وهي أنها جمرة من جمرات العرب، والجمرة لها شروط صعبة لا تتوافر لأي قبيلة مع اختلاف الأقوال في تعريف الجمرة؛ فالغالب أنها القبيلة التي لم تحالف قبيلة أخرى،أو القبيلة التي فيها ألف فارس، أو ثلاث مائة فارس، وجمرات العرب ثلاث[٣]: وهم بنو نمير، وبنو الحارث بن كعب، وبنو ضبة بن أد؛ فطفئت جمرتان، وهما بنو ضبة وبنو الحارث، لأنهما حالفتا، "وبقيت نمير لم تحالف فهي على كثرتها ومنعتها وكان الرجل منهم إذا قيل له: من أنت ؟ قال: نميري، إدلالا بنسبه وافتخارا بمنصبه، حتى قال جرير: فغض الطرف إنك من نمير...(البيت)"[٤].

كان لها دور كبير منذ الجاهلية، واستمر دورها حتى بعد الإسلام والفتوحات الإسلامية،كانت تسكن في اليمامة ونجد، وفي معجم ياقوت والبكري ذكر لمساكنهم ومياههم وغيرها.

---

[١] ابن حزم: ٢٧٢.

[٢] السابق: ٢٧٩.

[٣] وهناك أقوال أخرى: يرجع (الراعي النميري: حياته وشعره) ص ٦.

[٤] خزانة الأدب: ١ / ٧٤.

الهجاء والنقائض

كان العصر الأموي بظروفه السياسية والاجتماعية العصر الأمثل لازدهار فن الهجاء والبيئة الحاضنة له؛ إذ وجد فيها كل عوامل الازدهار والتنوع والنضج، وتصدر سوق الشعر والشعراء.

والحديث هنا سيقتصر على فن الهجاء عند الراعي النميري وإن كان قد أخذ نصيبه من الاهتمام والدراسة، غير أن تناوله سيركز على بعض الجوانب الجديدة التي لم تتطرق لها الدراسات السابقة، محاولة لكشف بعض السطور المخفية في شخصية الشاعر واستجلاء بعض الحقائق، والإجابة عن بعض علامات الاستفهام حوله.

وأهم الأسئلة المعلقة حول الشاعر وشعره: لماذا نأى بنفسه عن معركة النقائض التي كانت محتدمة بين أعلام العصر، ماعدا نقائضه مع الأخطل ؟ ولماذا لم يرد على جرير وانسحب من أول جولة ؟ وهل انتماؤه للطبقة العليا ترك أثرا في شعره الهجائي ؟ وما الأبعاد الطبقية التي كانت وراء هجائياته وتعامله مع الشعراء بحسب طبقاتهم؛ فهل رفعة الشاعر أو وضاعة نسبه تصرف الراعي عن هجائه أو تدفعه إليه.

واستجلاء هذه الجوانب الخفية سيكون من خلال عرض الأطراف التي تعرض لها الراعي بالهجاء؛ لاختلاف الهجاء عنده بحسب المهجو، وهم:

الأخطل وجرير، شعراء الهجاء، شخصيات عامة، بعض القبائل.

أولا: الأخطل:

نقائض الراعي للأخطل وهجائياته له تقدم الصورة الأصلية للشاعر، صورة المناضل الذي يقف سدا منيعا دون قبيلته، ويقدم مصلحة القبيلة على أي اعتبارات أخرى، وهي صورة متفردة من شعر الهجاء عند الراعي من جانبين: الأول الصعوبة اللغوية

والأسلوبية التي ترتقي لمكانة الشاعرين الفنية، والآخر الاحتشاد التاريخي واستعراض الصراع بين القبيلتين ومفاخر قيس على تغلب، حتى لتغدو قصائده سجلات تاريخية قبلية، وهذا مالم نعهده في أشعار الهجاء عند الراعي.

وربما نتعجب من موقف الراعي ونظن للوهلة الأولى أن هناك بعض التناقض الطبقي عند الشاعر؛ فكيف يختص أقوى هجائه لشاعر في قمة بني تغلب، وتغلب في أعلى الطبقات؛ ويزول العجب إذا عرفنا دافع الهجاء عند الشاعر؛ فهناك سبب أقوى من الطبقية ومن أي دافع آخر؛ وهو الرواسب القبلية والسياسية بين الشاعرين؛ فالخلاف عميق بين قيس وتغلب سواء أكان ذلك في الصراع والحروب بين القبيلتين، أم في اختلاف الميول السياسية لهما، وبلا شك يتعمق أثر هذه العوامل بكون كلا الشاعرين يمثل اللسان المدافع لقبيلته والحصن الحصين لها.

ولابد من توطئة تاريخية ووقفة قصيرة مع الصراع بين القبيلتين في العصر الأموي؛ لنفهم البعد التاريخي والمقاصد القبلية في نقائض الشاعرين، إذ اشتعل الصراع بين القبيلتين بعد معركة مرج راهط، وإن لم تكن لتغلب علاقة مباشرة فيها؛ فبعد هزيمة القيسيين في المعركة من الأمويين والكلبيين على وجه الخصوص، وما حدث من محاولات أخذ الثأر من بني كلب، كانت النتيجة إجلاء بني كلب من منازلهم القريبة من تغلب، وبعدها أصبحت قيس وتغلب متجاورتين؛ وكان القيسيون يسيئون جوار بني تغلب، ثم حدث أن تعدى بعض الغلمان من قيس على عنز لامرأة ناكح في بني تغلب وكانت تلك الشرارة التي أشعلت فتيل العداوة بين القبيلتين، وعزز العداء بينهما الصدام السياسي بانضمام تغلب إلى الأمويين ومعاداة قيس والزبيريين، مما عمق العداوة بين القبيلتين وأدى إلى وقائع كثيرة كانت الغلبة في أغلبها لقيس على تغلب، مثل يوم ماكسين والثرثار الثاني

والسُّكَير والبليخ والكُحيل والبشر وغيرها [١].

والراعي عندما يتحدث عن تغلب والأخطل فإنه لا يتحدث باسم نمير أو العامريين بل باسم القبيلة الأم قيس؛ لأن الصراع كان بين قيس وتغلب، وكان الراعي مع مجموعة أخرى من الشعراء (ابن الصفار والمحاربي وابن الصعق وغيرهم)[٢] كانوا لسان قيس المنافح، مقابل الأخطل مناضل تغلب الذي لم يكن _كما يقول د. شوقي ضيف_ يقيم بدمشق طويلا؛ بل كان قريبا من قومه بالجزيرة، يناضل عنهم في الفترة التي احتدمت فيها المعارك بين تغلب وقيس [٣].

ولهذا عندما نقرأ أشعار الراعي في هجاء الأخطل نجد لوحة لاستعراض مفاخر قيس وأيامها وهزائم تغلب ومعايبها بأسلوب متقن يحشد فيه الشاعر إمكاناته الفنية ويهتم برسم الصورة وتجويد الصنعة، ومنها القصيدة التي يرد فيها على قصيدة الأخطل "التي أوقع فيها بقيس قبيلة قبيلة، وشبب بهند بنت أسماء"[٤]:

ألا يا اسلمي يا هندُ هندَ بني بدر وإن كان حيَّانا عُدًا آخر الدهر
وإن كنتِ قد أصميتني إذ رميتني بسهمك فالرامي يصيد ولا يدري"[٥]

[١] حول حروب قيس وتغلب انظر (أنساب الأشراف: ٧ / ٥٩ ، نهاية الأرب، النويري، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م -١٤٢٤ هـ: ٢ / ٣٤٨)

[٢] العصر الإسلامي: ٢٦١.

[٣] السابق: ٢٦١.

[٤] طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٤٩٨، وهند هي هند بنت أسماء بن خارجة الفزارية، تزوجها عبيد الله بن زياد بن أبيه، ثم بشر بن مروان بن الحكم، ثم الحجاج.

[٥] شعر الأخطل صنعة السكري، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الفكر، بيروت – دمشق، الطبعة الرابعة ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م: ١٣٥.

فناقضه الراعي بقوله[١]:

ألا يا اسلمي حييت أخت بني بكر تحيــة مــن صــلى فـؤادك بــالجمر
بآيــة مــا لاقيــت مــن كــل حســرة ومـا قد أذقنـاك الهـوان علـى صـغر

الشطر الأول يوهمنا أننا أمام أبيات غزلية وبخاصة أن الأخطل استفتح قصيدته بالغزل ولكن غزل الراعي يلبس ثوبا غير الذي نعرفه؛ فسرعان ما ينفتح الستار ونكون أمام شماتة وسخرية؛ فيتحول الحب إلى حقد، ويستحيل الغرام دماء تراق، فالتحية ليست تحيـة حـب ووصـل بـل تحيـة حسـرات وحـرق، ويسـتمر بخطـاب هـذه المـرأة مـع التهديـد والوعيد؛ فما رأته من ويلات لن يتغير:

فلــن تشــربي إلا برنــق ولــن تــري ســــواما وحيـــا بالقصـــيبة فالبشـــر

ثم ينطلق في البيت السادس متوجها بالخطاب المباشر للأخطل، وهو خطاب مكثف يختزل بين طياته قصصا وحكايات طويلة، خطاب ثري يصور لنا روح الطبقية والتعالي، روح الفخر والاعتزاز التي يحملها هذا الشاعر القيسي على تغلب وشاعرها؛ فيقول في خطابه الواثق الآمر:

أبـا مالـك لا تنطـق الشـعر بعـدها وأعـط القيـاد القيـادين علـى كسـر؟
فلن ينشر الموتى ولن يذهب الجزا هـوي القـوافي بـين أنيابـك الخضـر
ولو كنت في الحامين أحساب وائل غـداة الطعـان لاجتـررت إلـى القبـر
ولــولا الفــرار كــل يــوم وقيعــة لنالتــك زرق مــن مطاردنــا الحمــر
ومــا حاربتنــا مــن معَــد قبيلــة فنتركهــا حتــى تُقــروا علــى وتــر

[١] ديوان الراعي النميري، ت د. محمد نبيل طريفي، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠١٢م: ١٤١

وهنا نشتم رائحة السخرية المبطنة في بداية الخطاب؛ إذ يأتيه بروح الناصح المحب فيخاطبه بالكنية:"أبا مالك لا تنطق الشعر بعدها"؛ توقف عن قول الشعر، ولا يترك المجال مبهما ولا يعطينا الفرصة لوضع الافتراضات؛ فتأتي الإجابات سريعة؛ أعط القيادة من يستحقها، والسبب الثاني شعرك لن يغير من الأمر شيئا، ونلحظ الصورة الساخرة القبيحة التي يرسمها (أنيابك الخضر)، وهي لا تتناسق مع (أبا مالك)، ولا يكتفي بهذين السببين بل يضيف لهما سببا أقوى؛ فشعرك بعيد عن الواقع لا يصور صفاتك الحقيقية من الجبن والانهزام؛ فهذا الشعر الذي تتغنى فيه بالشجاعة والإقدام لا يعكس حقيقتك المنهزمة؛ فلو لم يكن ديدنك الهروب في حروبنا معك لكنت الآن في عداد الأموات؛ لأننا في كل معركة لا نترك في القبيلة إلا الرغبة في الأخذ بالثأر من كثرة القتلى.

والراعي هنا يرد على الأخطل الذي سخر من القيسيين في هذه القصيدة، ومن مقتل عمير بن الحباب[١] على يد التغلبيين:

لعمري لقد لاقت سليم وعامر على جانب الثرثار راغية البكر[٢]

ويلمح الراعي إلى فرار الأخطل في (يوم البشر[٣]) عندما أوقع الجحاف بن حكيم

[١] عمير بن الحباب بن جعدة السلمي، رأس القيسية في العراق، وأحد الأبطال الدهاة، خرج على عبد الملك، واجتمعت عليه كلمة قيس وقاد كثيرا من أيامها ضد اليمنية وبني كلب وتغلب، كانت وفاته نحو ٧٠ هـ (الأغاني: ١٢ / ٢٤١، ١٩ / ٢١٠، ٢٤ / ٢٩، خزانة الأدب: ٩ / ٤٨١، الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الثانية عشرة ١٩٩٧م: ٥ / ١٨٨).

[٢] شعر الأخطل: ١٤٠.

[٣] حول هذا اليوم انظر (الأغاني: ١٢ / ٢٣٢، أنساب الأشراف: ٧ / ٧٩)

السلمي[١] ببني تغلب وقتل منهم مقتلة عظيمة أخذ فيها الأخطل فظن آخذه أنه عبد وسئل فقال أنا عبد فخلى سبيله ورمى بنفسه في جب من جبابهم مخافة أن يراه من يعرفه فيقتل، فلما انصرفوا خرج من البئر.

ويختار هذه الموقعة تحديدا شماتة بالأخطل وما لحق فيه من عار بعد غرور وفخر؛ فتذكر الروايات أنه وفد على عبد الملك بن مروان فدخل عليه الجحاف بن حكيم السلمي؛ فقال عبد الملك أتعرف هذا يا أخطل ؟ قال نعم هذا الذي أقول فيه:

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر بقتلى أصيبت من سليم وعامر[٢]

وكان هذا البيت هو اللي استثار الجحاف واحتال بعده حيلة هاجم من خلالها بني تغلب وأغار عليهم في منازلهم في (البشر)وقتل منهم مقتلة عظيمة، قال فيها الأخطل:

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة إلى الله منها المشتكى والمعوَّل[٣]

وهذا الموقف يعطي صورة لما كان يفعله التغلبيون عامة في بلاط بني أمية تجاه القبائل؛ فقد كانت تتقرب لبني أمية وتثبت ولاءها من خلال طعن القبائل الأخرى والتشكيك في نواياهم، وخصوصا القبائل التي ساندت ابن الزبير وعلى رأسها قيس، وكان الأخطل يقوم بدور كبير في ذلك، في السخرية والتحريض فضلا عن الهجاء، كما كان الراعي يقوم بدوره في الدفاع عن قبيلته وهجاء الأخطل وبني تغلب في بلاط بني أمية.

---

[١] الجَحَّاف بن حكيم من بني ثعلبة بن بُهثة بن سليم بن منصور، ولد بالبصرة، وتوفي نحو سنة ٩٠ هـ، كان فاتكا ثائرا اشتهر بقيادة قيس في يوم البشر (طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٤٧٩، الأغاني: ١٢ / ٢٣٢، الأعلام: ٢ / ١١٣).

[٢] أنساب الأشراف: ٧ / ٧٩، وورد في طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٤٧٨، والشعر والشعراء: ٤٨٥.

[٣] طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٤٧٩.

ويستكمل الراعي تصويره الساخر مخاطبا الأخطل: ومن كثرة هروبك فقدت كل من حولك حتى غدوت وحيدا ككلب يعوي بعد أن فقد رهطه:

وكنت ككلب قتّل الجيش رهطه فأصبح يعوي في ديارهم الغبر

وبعد ذلك يترك الخطاب المفرد إلى روح الجماعة والاعتزاز والفخر القبلي؛ ويفتح صفحات من مجد قيس، وقوتها وانتصاراتها على تغلب:

ونحن تركنا تغلب ابنة وائل كمنكسر الأنياب منقطع الظهر
وكانوا كذي كفين أصبح راضيا بواحدة شلاء من قصب عشر

الهزيمة الشنعاء أوصلتهم إلى مرحلة البؤس والرضى بأقل الخسائر !

وتختلف هذه القصيدة عن كل أشعار الهجاء عند الراعي؛ إذ أن أبياتها السبع عشرة خصصها كلها للهجاء، وهي تجمع كل الأبعاد؛ ففيها التاريخ والصراع بين قيس وتغلب، وهناك التحدي والفخر؛ فيأتي الفخر جنبا إلى جنب مع الهجاء وبخاصة في مجال الشجاعة والبطولة، وحتى عندما يتعرض للأخطل بالذم فإنه يركز على صفات الخوف والفرار من ساحات الوغى.

ومرة أخرى وفي مطولة فخرية تقارب التسعين بيتا، لا يكتمل الفخر إلا بالتعريض ببني تغلب:

أصابت حربنا جُشم بن بكر فأصبح بيت عزهم عزينا
ألم نترك نساءهم جميعا بأقبال الهضاب مسندينا
بدأنا ثم عدنا فاصطلمنا شراذم من أنوفكم بقينا
قتلناكم ببلدة كل أرض وكنا في الحروب مجربينا[1]

[1] الديوان: ٢٨٣.

ويختار البطن الذي ينتمي إليه الأخطل (جشم بن بكر)؛ فيبدأ به ساخرا مفتخرا شامتا، ثم يأتي خطابه عاما لبني تغلب؛ فشجاعتنا تشمل القبيلة كلها:

إذا خالطنا هامة تغلبي فلقن الرأس منه والجبينا
ألم نترك نساء بني زهير على القتلى يحلقن القرونا

ويبدو أنه كتب القصيدة بعد ثأر زفر بن الحارث [١] من مقتل عمير بن الحباب' إذ انهزمت قيس في يوم الحشاك[٢] وقتل قائدها عمير على يد جميل بن قيس من بني كعب بن زهير[٣]؛ فيقود زفر انتقام قيس لعمير في يوم الكحيل[٤] ووجه خيلاً إلى بني فدوكس، وهم بطن من تغلب، فقتل رجالهم واستبيحت الأموال والنساء حتى لم يبق منهم غير امرأة واحدة، ووجه ابنه الهذيل في جيش إلى بني كعب بن زهير، فقتل فيهم قتلاً ذريعاً.

ويستكمل قصة الثأر من بني زهير:

تمنيت المنى فكذبت فيها ورويت الرماح وما روينا
وما تركت رماح بني سليم لفحل في حواصنهم جنينا

---

[١] زفر بن الحارث من بني عمرو بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، كان كبير قيس في زمانه، شهد وقعة صفين، وشهد وقعة مرج راهط مع الضحاك بن قيس، فلما قتل الضحاك هرب إلى قرقيسيا وتحصن فيها حتى مات نحو ٧٥ هـ(طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٤٧٩، أنساب الأشراف: ٤١/٧، خزانة الأدب: ٢ / ٣٧٢، الأعلام: ٣ / ٤٥).

[٢] انظر حولها: أنساب الأشراف: ٧ / ٧٢.

[٣] يقال: بل اجتمع على عمير غلمان من بني تغلب فرموه بالحجارة وقد أعيا حتى أثخنوه،

[٤] أنساب الأشراف: ٧ / ٧٦.

ويخصص بني سليم من قيس تحديدا لأنهم عشيرة ابن الحباب ، إضافة لما حدث لهم يوم الحشاك خاصة؛ إذ استحر القتل فيهم يومئذ كما يذكر البلاذري[١].

وفي النهاية يصل الراعي إلى القول:

إذا مـــا حاربتـــك بطـــون قـــيس حســـبت النـــاس حربـــا أجمعينـــا

وكـأني بـه فـي هـذه القصـيدة ينـاقض ذروة فخـر تغلـب (ألا هبـي بصـحنك فاصبحينا)؛ فقد استخدم الوزن والقافية والسمات الأسلوبية.

وفي موضع آخر يتوجه الراعي بالهجاء للأخطل ولتغلب في قصيدة مديح للأمير الأموي بشر بن مروان[٢]؛ مما يعكس رغبته في الغض من شأن الأخطل وقبيلته بحضرة بني أمية كما كان يفعل الأخطل.

والقصيدة معارضة لقصيدة للأخطل في هجاء جرير وقيس[٣]، وهي طويلة تبلغ زهاء سبعين بيتا ويختار لها خاتمة هجائية فخرية، وكأنه يريد أن تكون اللقطة الأخيرة التي يتوقف الكلام عندها فتعلق بالأذهان وتبقى في النفس هي مفاخر قيس على تغلب؛ فينطلق بالأساليب الإنشائية رافعا صوته بمفاخر قبيلته وأيامها المجيدة:

ألســـنا أشـــد النـــاس يـــا أم ســـالم لدى الموت عند الحرب قدما تآسيا
فلـــم يبـــق منـــا القتـــل إلا بقيـــة ولـم يبـق مـن حيـي ربيعـة باقيـا
برزنـــا لضـــبعاني معـــد فلـــم نـــدع لبكـــر ولا أفنـــاء تغلـــب ناديـــا

---

[١] السابق: ٧ / ٧٤.

[٢] بشر بن مروان بن الحكم بن أبي العاص القرشي الأموي، كان سمحا جوادا، ولي إمرة العراقين (البصرة والكوفة) لأخيه عبد الملك، توفي بالبصرة سنة ٧٤ هـ (خزانة الأدب: ٩ / ٤١٥، الأعلام: ٥٥/٢).

[٣] ينظر: شعر الأخطل: ٢٥٠.

بـرهط ابـن كلثـوم بـدأنا فأصـبحوا لتغلــب أذنابــا وكــانوا نواصــيا

إذن الفخر وتأكيد الأمجاد مرتبط بهزائم بكر وتغلب حيي ربيعة، وليؤكد ذلك يعود إلى سجلات القبيلتين، ويعدد الخسائر التي منيت بها تغلب، ولا يكتفي بتغلب بل يتحدث عن هزائم قبائل بكر وبهراء؛ ليؤكد قوة قيس وبطشها:

أعــدنا بأيــام الفــرات علــيهم وقائعنــا والمشــعلات الغواشــيا
ســلاهب مــن أولاد أعــوج فوقهــا فــوارس قــيس مشــرعين العواليــا
وغارتنــا أودت ببهــراء إنهــا تصــيب الصــميم مــرة والمواليــا
ونحــن تركنــا بــالعقير نســاءكم مــع الثكـل هزلــى يشـتوين الأفاعيـا

إنه الفخر والحماسة والشماتة والهجاء، والتاريخ والحاضر، القوة والمجد، التهديد والوعيد، التخويف والتحذير، كلها رسائل يرسلها الشاعر القيسي لكل الأعداء والمشككين.

ثانيا: جرير:

والوقفة الثانية مع الشخصيات التي هجاها الراعي ستكون مع جرير، في قصة الهجاء الشهيرة التي تناولها القدامى والمحدثون عرضا وتفصيلا، محاولة للإجابة عن بعض الأسئلة المعلقة حولها:

- جرير اليربوعي الكليبي كان هواه مع قيس، يدافع عنها ويقف في صفها ضد تغلب والأخطل، محكوما بسياسة عشيرته بني يربوع الذين وقفوا بصف ابن الزبير ضد الأمويين مخالفين بذلك موقف تميم، والمعروف أن مناصرة جرير لقيس أخرته عند بني أمية عن غيره من الشعراء، وأشعلت العداوة بينه وبين الأخطل التغلبي، ولم يغير جرير موقفه على الرغم من كل ماجره عليه، ولكنه الآن ينقلب على قبيلة من كبرى قبائل قيس، ويفرق بين فروعها؛ يفرق بين نمير وكعب وكلاب، ويتهجم على الراعي

في هجاء مقذع، ولا نجد لذلك أسبابا قوية سوى ما تحدث عنه القدامى من تفضيل الراعي للفرزدق على جرير ومحاولة جرير كف الراعي عن ذلك، ثم استثارة قبلية طبقية من جندل ابن الراعي كما تروي بعض الروايات' أو من عرادة النميري في روايات أخرى.

- لماذا خسر الراعي مع أول جولة ؟ ولماذا لم يرد على جرير ردا يتناسب مع قصيدته ؟ لماذا كان حريصا على عدم الدخول في حرب النقائض مع شاعرها الأول ؟ مهما تعددت الإجابات عن هذا الموقف فإنها لا تشفي الغليل ولا تكاد؛ فكيف لسيد من سادات قومه وشاعر كبير، ينتمي لقبيلة من أكبر قبائل العرب وجمرة من جمراتها، ويرى قبيلته تسقط في مهاوي الخزي والعار ثم لا يتحرك شاعرها دفاعا عنها فضلا عن أن يتحرك دفاعا عن نفسه وانتصارا لذاته.

وهنا نطرح بعض الأسباب التي نظن أنها وراء سكوت الراعي عن الرد على جرير:

السبب الأول الذي طرحه أغلب المؤلفين يتمحور حول قوة قصيدة جرير، لدرجة أبعدت الراعي عن مجرد التفكير في الرد، وجعلته يحجم عن اللقاء؟ وهو ما اعترف به الراعي نفسه، في الرواية التي تكررت في ترجمته:"مر راعي الإبل في سفر فسمع إنسانا يتغنى على قعود له بشعر جرير، وهو قوله:

وعاوٍ عوى من غير شيءٍ رميتُهُ بقافيةٍ أسبابها تقطر الدَّما
خَروجٍ بأفواه الرواة كأنها قَرا هُندوانيٍّ إذا هُزَّ صمَّما

فسمعه الراعي؛ فأتبعه رسولا فقال: لمن البيتان ؟ قال: جرير، قال: والله لو اجتمعت الجن والإنس على صاحب هذين البيتين ما أغنوا فيه شيئا، ثم قال لمن حضر:

ويحكم ! ألام على أن يغلبني مثل هذا!"[١]، فهنا اعتراف وتبرير لمن يلومه على عدم الرد، ويشعرنا بكم هائل من الإحباط وخيبة الأمل، وإن كان بعض الباحثين يرى أن هذا من قبيل الإنصاف عند الراعي[٢]، وفي الحقيقة لو أن الراعي رد على جرير وجاراه في قصيدته ثم اعترف بالقصور عنه لعددنا قوله إنصافا ولكنه أحجم عن اللقاء لذلك نراه أقرب للتبرير والاعتذار منه للإنصاف.

إذن ربما يجعلنا هذا الموقف نتساءل هل كان شعور الراعي بالقصور الفني كافيا ليحجم عن اللقاء؟ بالطبع ليس كافيا وبخاصة أننا نعرف عدد الشعراء الكبير الذين ناقضوا جريرا ودخلوا معه في معركة النقائض لسنوات طويلة، حتى يقال إن الشاعر البعيث استمر يهاجي جريرا ما يقارب أربعين عاما وهو أقل من الراعي، وهذا يجعلنا نطرح سببا آخر يضاف للسبب الأول مما يجعله أقرب للقبول.

والسبب الآخر الذي أرجحه أن هذا الموقف قد يعكس جانبا خفيا من شخصية الراعي؛ الشخصية الوقورة المسالمة أو الشخصية التي لا تميل إلى الدخول في صدامات وخلافات قوية، وتؤثر الهدوء والسلامة وبخاصة عندما لا تكون هناك صراعات قبلية؛ وربما يتفق هذا الجانب من شخصيته مع شعره؛ فعند تفحص شعره بشكل عام وشعر الهجاء بشكل خاص نجده قصير النفس لا يحب النزال الطويل، ولا يكثر الدخول في المناقضات،ولم يغير هذا التوجه إلا في هجائه الأخطل.

وربما نلتمس سببا ثالثا يتعلق بالسبب الثاني وهو شعور الطبقية القبلية، هذا الشعور ربما صرفه عن الرد على جرير، ربما لم يستطع أن يجعل نفسه في ساحة واحدة

---

[١] طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٤٣٨، الشعر ولشعراء: ٤٦٦، الأغاني نقلا عن ابن سلام: ٨ / ١٢، ٢٤ / ١٧٥.

[٢] د. واضح الصمد، مقدمة ديوان الراعي: ١٥.

مع شاعر من بني يربوع وهو الشاعر النميري القيسي، وهذا المعنى عبر عنه صراحة، ويحمل بعض التظاهر والمكابرة وكأنه غير آبه بما قاله عنه، أو متيقن بأن ما قاله لن يؤثر على مكانته ومكانة قبيلته.

وقبل أن نختم الأسباب لابد من وقفة عند عدوهما المشترك (الأخطل)؛ إذ ربما حقد الراعي عليه دفعه للبعد عن هجاء جرير؛ حتى لا يساعد في علو كعب الأخطل عليه، وقد يكون هذا أمرا مشتركا بين جرير والراعي؛ إذ لم يعاود جرير هجاء الراعي وسكت عنه نكاية في الأخطل حتى لا يزيد زلزلة مكانة الراعي مما يعد نصرا للأخطل، لقد كان رابط (المضرية) بين جرير والراعي في مواجهة الأخطل أقوى من كراهة كل منهما للآخر، وربما كان ولاء كليب ونمير للزبيريين دافعا خفيا لتوقف النقائض بينهما.

وللراعي في هجاء جرير قصيدتان: الأولى التي يرد فيها على قصيدة جرير، يرد على قصيدة تجاوز التسعين بيتا بثمانية أبيات !

وعلى الرغم من قصر الأبيات واليأس الذي يلف قائلها إلا أنها لا تخلو من الطبقية القبلية؛ فتحف الخطاب روح التعالي؛ فإن كنت يا جرير قد أوتيت ملكة البيان وسلاطة اللسان؛ فإنك تظل وضيعا ومن نسب غير شريف؛ فأين بنو يربوع من بني نمير !، إن أبياتك تلك لن تغير من الحقيقة شيئا؛ فأين أنت مني ومن بني نمير، أين أنت من الأمجاد، أين أنت من دجلة ومن البحر ؟ [١]

رأيت الجحش جحش بني كليب تيمم حول دجلة ثم هابا
فأولى أن يظل العبد يطفو بحيث ينازع الماء السحابا
أتاك البحر يضرب جانبيه أغر ترى لجريته حبابا
نمير جمرة العرب التي لم تزل في الحرب تلتهب التهابا

[١] الديوان: ٤٦.

إذن نقرأ الفوقية التي يتحدث الراعي بها، فمرة يصفه بالجحش، ومرة بالعبد، أما الراعي فمرة دجلة وأخرى بحر أغر لا عيب فيه، وقبيلته جمرة العرب التي تضرب ضربتها في الحرب دون أن تحسب حسابا لأحد، وهكذا يمزج بين الفخر والهجاء بلسان الواثق المكابر الذي لا يريد أن يظهر ضعفا أو تأثرا بما قاله جرير؛ فتلك القصيدة لن تغير الحقيقة والواقع، وهذه الحقيقة الثابتة كانت هي السبب في عزوفه عن الرد على جرير؛ فهو يترفع عن الرد عليه ولم يكتب هذه الأبيات القليلة إلا كي يشرح للآخرين موقفه، وأنه يترفع عن الرد؛ لأنه على يقين أن قصيدة جرير لا تحجب الحقيقة ولا تغير من الأمر شيئا، وإن كان الأمر الواقع أن قصيدة جرير غيرت المكانة الاجتماعية لبني نمير بإجماع كل من تعرض لهذا الموقف:

وإنـــي إذ أســـب بهـــا كليبـــا	فتحـــت علـــيهم للخســـف بابـــا
ولـــولا أن يقـــال هجـــا نميـــرا	ولـــم نســـمع لشـــاعرها جوابـــا
رغبنـــا عـــن هجـــاء بنـــي كليـــب	وكيـــف يشـــاتم النـــاس الكلابـــا
وداري ســـلخت الجلـــد عنـــه	كمـــا ســـلخ القـــراري الإهابـــا

ونلحظ كيف تتعاظم الثقة في نفس الشاعر؛ فهذه الأبيات القليلة التي كتبها خسفت بجرير وقبيلته ! أي ثقة بعد هذه الثقة، أم أنها خيبة الأمل، ويعمد إلى المجانسة بين بني كليب والكلب، فيبالغ بالتحقير والمكابرة، وهذه الأبيات القليلة يرى أن تجزي عن عشرات الأبيات فمرة فتح فيها عليهم للخسف بابا، ومرة سلخ جلده بهذه الأبيات القليلة كما يسلخ القصاب جلد الذبيحة.

وهناك خلاف حول نسبة القصيدة الثانية للراعي؛ فهناك من ينسبها لابنه جندل، ومما يقوي هذا الرأي في ظني أن هذه القصيدة ليست بالمستوى الفني الذي يليق بالرد على دامغة جرير، كما أن جندلا هو من استثار جريرا عندما كان واقفا يتحدث مع أبيه،

وجعله يكتب تلك المطولة الدامغة، لذلك قد تكون لجندل وليس للراعي، وبعض المؤلفين ينسبها للراعي ولكن في هجاء عدي بن الرقاع أو خنزر بن أرقم، وليست في هجاء جرير.

وفي هذه الأبيات يجمع الراعي بين أسلوبي السخرية والمفاضلة في الهجاء؛ وفي بداية الأبيات يرسم صورة ساخرة لهذا الشخص الذي بادره بالهجاء؛ فهو يجمع أسوأ الصفات الخَلقية والخُلقية؛ قصير غليظ قصير الرقبة، وقومه تزينوا باللؤم وكأنه أجمل ما يمتلكون:

إني أتاني كلام ما غضبت له وقد أراد به من قال إغضابي
جُنادف لاحق بالرأس منكبه كأنه كودن يوشى بكلاب
من معشر كحلت باللؤم أعينهم قفد الأكف لئام غير صياب

وبعد أن يهزأ به ويسخر من صفاته يعمد إلى المفاضلة بينه وبين غيره؛ للدفاع عن نفسه والفخر بمجده وحسبه؛ ويتعجب مما فعله جرير فكيف تبادر بالذم قبل أن تعرف من تخاطب:

هلا سألت هداك الله ما حسبي إذا رعائي راحت قبل حطابي
إني أقسم قدري وهي بارزة إذ كل قدر عروس ذات جلباب

فأولئك كحلت باللؤم أعينهم، أما شاعرنا فهو مضرب المثل في الكرم، وقدره واضحة للعيان إذا لؤم غيره جعله يخفي قدره عن الطارقين.

ثالثا: شعراء الهجاء:

أ / شعراء الهجاء: في ديوان الراعي نجد بعض أشعار الهجاء لشعراء عرفوا بالهجاء، وهم خنزر والحلال، وأوس بن مغراء، وعدي بن الرقاع العاملي:

خنزر بن أرقم النميري وقيس بن عاصم النميري المعروف بالحلال[١]: ومن اسم الرجلين نستدل على هجاء الراعي لبني قبيلته، وربما قصدهما ابن سلام عندما وصفه بأنه كان "بذيا هجاء لعشيرته "[٢]، إذ لا نجد له هجاء لعشيرته سوى ما دار بينه وبين الحلال وخنزر، وهو الأمر الذي استند إليه جرير أيضا عندما قال عن الراعي:

وقرضك في هوازن شر قرض تُهجيها وتمتدح الوطابا[٣]

وهذا البيت استشهد به ابن سلام لتأكيد حكمه، ونتردد في القبول بهذا الحكم العام على الراعي استنادا إلى موقف واحد، ويمكن الرد عليه من جهتين:

الأولى: أن هذا الأمر ليس جديدا في ميدان الهجاء؛ فقد يضطر الشاعر إلى الدخول في مهاجاة مع أحد شعراء عشيرته أو رهطه الأدنين، فيوقعه ذلك في حرج يجعله يلجأ إلى الهجاء الشخصي البعيد عن عشيرة المهجو، كما حدث بين الفرزدق ومسكين الدارمي، وهذه المناقضات والأهاجي تدل على وضع العرب بالبادية وأن الصراع مستعر

---

[١] لا تسعفنا المصادر بترجمة لهذين الرجلين، وبعض المؤلفين وقعوا في وهم؛ فظنوا أن الحلال وخنزرا شخص واحد، انظر: شرح ديوان حماسة أبي تمام المنسوب لأبي العلاء المعري، تحقيق حسين محمد نقشة، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٩١ م _ ١٤١١ هـ: ٢ / ١٠٠١، شرح ديوان الحماسة، التبريزي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي بالقاهرة: ٤ / ٧٧، وكذا في اللسان وتاج العروس ؛ فكل هذه المصادر ترى أن خنزر بن أرقم اسمه الحلال، غير أننا عندما نقرأ شعر الراعي نتوصل إلى أنهما شخصان وليسا شخصا واحدا، كما ورد الاسمان في مصادر أخرى؛ فالحلال بن عاصم بن قيس من بني بدر بن ربيعة بن عبد الله بن الحارث بن نمير، وخنزر إمام بن أقرم أخو بني بدر بن ربيعة (يرجع حاشية طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٥١٧)

[٢] طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٥٠٢.

[٣] طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٥٠٢ ، والبيت في الديوان:
وبئس القرض قرضك عند قيس تهيجهم وتمتدح الوطابا (الديوان: ٩٣)

بين بطون القبيلة الواحدة لأسباب متعددة أهمها التجاور المكاني[١]، والهجاء بين بطون القبيلة الواحدة نتيجة طبيعية للعصبيات القبلية التي هاجت في العصر الأموي وأخذت تضيق وتدنو حتى دخلت بين رجال العشيرة أو القبيلة الواحدة، حيث تثور الغارات بين الأحياء ويسقط القتلى وتطلب الثارات"[٢].

الأخرى: أن الراعي لم يبادرهما بالهجاء؛ بل كان مضطرا للرد عليهما والدفاع عن نفسه، وكان حريصا على عدم المساس بالقبيلة؛ فاتخذ هجاؤه إياهما طابعا شخصيا بحتا بعيدا عن معاني وقيم القبيلة، ولذلك لجأ إلى الإفحاش والإسفاف والبذاءة في العبارة،أو السخرية والتهكم ورسم صور مضحكة وتضخيم عيوبهما الشخصية.

ويعد هجاء الراعي للحلال وخنزر أكثر شعره فحشا وإسفافا؛ حتى إن بعضه تصعب روايته؛ ومن اللافت أنه يدخل أمهما في هجائهما وهنا يبلغ الإسفاف أقصاه؛ فيقول مثلا[٣]:

أن الحـــلال وخنـــزرا ولـــدتهما أمٌّ مُعامســـةٌ علـــى الأطهـــار

فأمهما هنا تتستر في شبيبتها ولا تتهتك؛ أي: تأتي ما لا خير فيه غير معالنة به، كما شرح ابن منظور هذا البيت.

ويهجو الراعي الحلال وخنزرا في خمسة مواضع، موضعين لكل شاعر منهما، وموضع جمعهما معا، وعند النظر فيها يتضح ما أشرت إليه من أنه لم يكن يبادر للهجاء؛ فيقول مصرحا بأنه في موقف المدافع:

---

[١] الراعي النميري: حياته وشعره: ٦١، ٦٢.

[٢] اتجاهات الشعر: ٢٥٧.

[٣] الديوان: ١٤٦.

حلفت لهم لا تحسبون شتيمتي بعيني حبارى في حبالة معزب[١]

ويقول:

تغنى ليبلغني خنزر وكل ابن مومسة أخرز[٢]

ويصرح بالسبب في موضع آخر:

وعيرني الإبلَ الحلالُ ولم يكن ليجعلها لابن الخبيثة خالقه[٣]

فالحلال عيره بأنه راعي إبل؛ فرد بأنه صاحب غنم والإبل تتفوق على الغنم.

ويقدم ابن سلام لأحد نقائضهما بقوله:" فعيره بنو عم له من قومه كانوا يهاجونه: الحلال وخنزر"[٤]، فهم من يبادرون بالهجاء، والنموذج الذي يذكره ابن سلام يتعلق بقصة شهيرة ترددت في كتب الأدب، وهي كما رواها أبو تمام في الحماسة:" نزل بالراعي النميري رجل من بني أبي بكر بن كلاب في ركب معه ليلا في سنة مجدبة وقد عزبت عن الراعي إبله فنحر لهم نابا من رواحلهم فلما راحت الإبل أعطى رب المال نابا مثلها وزاده ناقة ثنية فقال:

عجبت من السارين والريح قرة إلى ضوء نار بين فردة والرّحا
إلى ضوء نار يشتوي القد أهلها وقد تُكرم الأضياف والقد يشتوي[٥]

فرد خنزر بن أرقم متهكما:

---

[١] الديوان: ٣٣.
[٢] الديوان: ١٢٩.
[٣] الديوان: ٢١٢.
[٤] طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٥١٧ .
[٥] شرح ديوان الحماسة لأبي العلاء: ٢ / ٩٩٧، ٩٩٨، الديوان: ١٩، ٢٠، بصياغة أخرى.

بنـــي قَطَـــن لا آمـــن الله روعكـــم فـــأنتم كـــلاب رأس فيهـــا قرورهـــا
بنـــي قطـــن مـــا بـــال ناقـــة ضـــيفكم تعشـــون منهـــا وهـــي ملقـــى قتودهـــا
وبـات الكلابـي الـذي يبتغـي القـرى بليلـة نحـس غـاب عنهـا سـعودها[١]

وهنا نلمس روح السخرية والتهكم، ونلحظ تحديد بني قطن الفرع الذي ينتمي إليه الراعي ساخرا من استقبالهم للضيف؛ إذ جاءهم ناشدا الضيافة لكنه يبيت بليلة شؤم غاب عنه خيرها لأنكم نحرتم ناقته.

وهنا تثور ثائرة الراعي، فينتفض انتفاضة قوية بنقيضة فاحشة، يبدؤها مباشرة بالنقاش والدفاع عن موقفه:

ومـاذا ذكـرتم مـن قلـوص عقرتهـا بسـيفي وضـيفان الشـتاء شـهودها
فقـــد علمـــوا أنـــي وفيـــت لربهـــا فـراح علـى عـنس بـأخرى يقودهـا[٢]

إذن الشاعر هنا يقف موقف المدافع، وأنه وفى لضيفه نابه وأعطاه فوقها ناقة ثنية، ولا يستمر بالدفاع والشرح بل ينطلق بالهجوم والتجريح؛ فمن البيت الثالث تبدأ سياط الهجوم، وهو لا يهجو خنزرا بل يهجو أمه بأشنع الهجاء:

قريـت الكلابـي الـذي يبتغـي القـرى وأمـــك إذ يخـــذي إلينـــا قعودهـــا

قريته وأديت حقه، وقريت أمك عندما جاءتنا في وقت الجدب والحاجة، ومن هذه النقطة ينطلق في هجاء أمه بكونها تأتي إليه طالبة منه القرى، وكيف أحسن إليها عندما جاءت طالبة المساعدة؛ فأضرم نارا كبيرة وعقر ناقة ضخمة وأكلت منها أمك حتى شبعت، فلما شبعت طلبت شيئا آخر:

---

[١] شرح ديوان الحماسة لأبي العلاء: ٢ / ١٠٠١.
[٢] الديوان: ١١٦.

فلما قضت من ذي الإناء لبانة أرادت إلينا حاجة لا نريدها ![1]

وليس بعد هذا الوصف أشنع منه، إذ يبلغ أقصى درجات الإسفاف والإفحاش والقذف، وقد أورد الأصفهاني استنكارا لهذا البيت واستهجانا، وعده نقيصة في حق الراعي؛ واستشهد بما يروى عن جندل ابن الراعي عندما قدم " على بلال بن أبي بردة، وقد مدحه، وكان يكثر ذكر أبيه ووصفه، فقال له بلال: أليس أبوك الذي يقول في بنت عمه، وأمها امرأة من قومه: فلما قضت من ذي..."[2]، وإن كان قد اكتفى بهذا التلميح دون فحش لفظي صريح؛ فتورط في القذف دون السقوط في فخ هجر القول.

أوس بن مَغْرَاء القُريعي [3]:

هجاء الراعي لأوس بن مغراء يمثل ما سبق الحديث عنه من أن الراعي لم يكن يبادر بالهجاء؛ بل يدافع عندما يتعرض له شاعر آخر، وإن كان ذلك لا يعني أنه يقصر في الرد أو يلين مع الخصوم، وابن مغراء من شعراء الهجاء كما ترجم له الرواة، ويبدو أنه كان يهاجي الراعي ولذلك نجد الراعي يرفض مسالمته عندما سمع بأن النابغة الجعدي وابن السمط تصالحا معه وتوعده بأشد الهجاء، يقول معبرا عن موقفه:

---

[1] الديوان: ١٢٠.

[2] الأغاني: ٢٤ / ١٧٧.

[3] أوس بن مغراء من بني ربيعة بن قريع بن عوف بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم، شاعر مخضرم، كان يهاجي النابغة الجعدي، شهد الفتوح وبقي إلى أيام معاوية، جعله ابن سلام في الطبقة الثالثة من الإسلاميين، توفي سنة ٥٥ هـ.(طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٥٧٢ ، الشعر والشعراء: ٦٨٧، الأعلام ٢ / ٣١، والزركلي توهم في ترجمته فنسبه إلى بني أنف الناقة، وبنو أنف الناقة هم أبناء جعفر بن قريع).

فإن كنت يا ابن السمط سالمت دوننا وقيس أبو ليلى فلما نسالم
وإن كنتما أعطيتما القوم موثقا فلا تغدرا واستسمعا للمراجم[١]

إذن يطلب منهما الوفاء بالميثاق والتوقف عن الهجاء والاكتفاء بالاستماع لمراجمه لأنه سيستمر بهجائه غير مكترث لصلحهم.

وهجاؤه لأوس تغلب عليه روح الطبقية والتعالي؛ فنقرأ مثلا قوله:

وأوس بن مغراء الهجين يسبني وأوس بن مغراء الهجين أعاقبه
تمنى قريش أن تكون أخاهم لينفعك القول الذي أنت كاذبه
قريش الذي لا تستطيع كلامه ويكسر عند الباب أنفك حاجبه[٢]

ونلحظ عند قراءة الأبيات روح التهكم والسخرية مع الإسفاف والوصف بدناءة الأصل وحقارة الشأن، والتكرار يوحي بالتصغير والتحقير لهذا الاسم الوضيع، ولذلك لا يرد على ادعاء أوس بأن قريشا تتمنى لو كان منهم؛ بل يكذبه بالإشارة إلى أنه عديم الذكر عندهم أصلا فكيف يتمنونه قرشيا ؟!.

وفي موضع آخر يتهجم على أوس ويصفه بالهوان والحقارة ويضم إليه في المذلة قبيلته بني سعد في أبيات تظهر فيها الطبقية [٣]:

إن ابن مغراء عبد ليس نائلنا حتى ينال بياض الشمس رانيها
تبلى ثياب بني سعد إذا دفنوا تحت التراب ولا تبلى مخازيها
الآكلين اللوايا دون ضيفهم والقدر مخبوءة منها أثافيها

(١) الديوان: ٢٦٣.
(٢) الديوان: ٣٦.
(٣) السابق: ٣٠٢.

عدي بن الرقاع العاملي[١]:

وعدي بن الرقاع أيضا من شعراء الهجاء؛ فقد تعرض لجرير وناقضه في مجلس الوليد، ومنع الأخير جريرا من مهاجاة عدي؛ فهجاه تعريضا.

والراعي يصرح بأن العاملي هو من ابتدر الهجاء:

يـــامن توعـــدني جهـــلا بكثرتـــه متـــى تهـــددني بـــالعز والعـــدد
فاقـدر بـذرعك إنـي لـن يقـومني قـول الضـجاج إذا ماكنـت ذا أود
لا تحســـبني مجهـــولا بمخبـــأة إنـي أنـا البـدر لا أخفـى علـى أحـد

وفي هجاء عدي تبرز الطبقية القبلية أيضا بأقوى صورها، ونلحظ أسلوب التحدي والثقة المطلقة.

ويعود مرة أخرى إلى إلقاء اللوم على ابن الرقاع:

أنـت امـرؤ نـال مـن عرضـي وعزتـه كعـزة العيـر يرعـى تلعـة الأسـد

إذن أنت من بدأت الحرب وليتك كنت أهلا لها:

لـو كنـت مـن أحـد يهجـى هجـوتكم يـا ابـن الرقـاع ولكـن لسـت مـن أحـد
تـأبى قضـاعة أن تعـرف لكـم نسـبا وابنـــا نـــزار فـــأنتم بيضـــة البلـــد

[١] هو عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع بن عصر بن عدة بن شعل بن معاوية بن الحارث، وأم معاوية بن الحارث عاملة بنت وديعة من قضاعة وبها سموا عاملة، ونسبه الناس إلى الرقاع لشهرته، كان شاعرا مقدما عند بني أمية، جعله ابن سلام في الطبقة السابعة، وهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم، توفي نحو سنة ٩٥ هـ. (طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٦٩٩ ، الأغاني: ٩ / ٣٥٠، الأعلام: ٤/ ٢٢١).

ومن شدة الإيلام الذي يحمله البيتان استشهد بهما ابن سلام على هجاء الراعي، فقال:"ولقد هجا الراعي فأوجع، قال لابن الرقاع العاملي..."[١].

ولعل طعن الراعي كان محفزا لابن حزم؛ إذ افترض أن نسب عدي مدخول في نسبته إلى عاملة القحطانية، وأنه قد يكون من بني أسد بن ربيعة بن نزار؛ فيقول عن بني هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد:"وكان فيهم عدد وشرف؛ ثم قتلتهم القرامطة بعد الثلثمائة؛ فافترقوا في قبائل العرب، ولم تجتمع لهم حلة بعدها، وكانوا كثيري الأذى، وعامر بن قاسط، ومعاوية بن قاسط، دخل بنوه في عاملة؛ فيقال إن عدي بن الرقاع الشاعر منهم "[٢]، وهو لم يقدح بذلك ولم يصرح بالقول بذلك؛ بل نسبه لمجهول "فيقال إن عدي بن الرقاع...".

رابعا: شخصيات عامة من غير الشعراء:

من الأطراف التي تعرض لها الراعي بالهجاء بعض الشخصيات العامة من غير الشعراء، أو المجهولة التي لا يذكر الرواة اسم المهجو.

وأهم القصائد التي تذكر هنا هي قصيدة الراعي في هجاء ابن بعاج الكلبي وقبيلته، وفيها يتحدث عما حدث بعد مرج راهط بين القيسيين والكلبيين، وكان بين النميريين بتدمر والكلبيين عقد مع ابن بعاج الكلبي لكنه نقض العهد وقتل رسلهم ثم قدم عليهم فقتل ابن بعاج وظُفر بالنميريين وقتلوا قتلا ذريعا، "فقال راعي الإبل في قتل ابن بعاج ولم يذكر غيره من الكلبيين..."[٣]:

---

[١]، طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٥٠٣ .

[٢] جمهرة أنساب العرب: ٣٠٠.

[٣] الأغاني: ١٩ / ٢١٢.

أحـار بـن عبـد للـدموع البـوادر وللجـد أمسـى عظمـه فـي الجبـائر
تجـيء ابـن بعـاج نسـور كأنهـا مجـالس تبغـي بيعـة عنـد تـاجر
تطيـف بكلبـي عليـه جديـة طويـل القـرا يقذفنـه فـي الحنـاجر
يقـول لـه مـن كـان يعلـم علمـه كـذاك انتقـام الله مـن كـل فـاجر
كـأن بقايا الجيش جيش ابن باعج أطـاف بـركن مـن عمايـة فـاخر[١]

وهكذا يتشفى الراعي بمقتل ابن بعاج ويحتفل بهذه النهاية، مصورا جثته بالصفقة الرابحة لجوارح الطير التي ستلتهمه وتمزق لحمه، ويزداد التعبير عن الفرحة والابتهاج بمقتله لأنه يراه انتقاما من الله للنميريين الذين فتك بهم...

ونلحظ هنا قوة الأبيات وصدق العاطفة والحماسة في أبيات الهجاء ولا يخفى سبب ذلك وهو وجود الدافع القبلي؛ فالقبيلة دائما هي التي تحرك الشاعر للاهتمام بقصيدة الهجاء، واحتشاد قواه الفنية للدفاع عنها، والهجوم على من يتعرض لها، ولذلك نجده في مواضع أخرى يتعرض لبعض الأشخاص لأسباب ذاتية فتكون أبياته قريبة المتناول على المستوى اللغوي والدلالي أيضا؛ ففي هذه الأبيات يهجو شخصا يطلق عليه (أبا ثوبان) دون أن نعرف من هو أبو ثوبان أو من أي قبيلة أو سبب الهجاء؛ فبعد بعض الأبيات في الغزل يتوجه إليه بأقبح الأوصاف:

وإن أبـــا ثوبـــان يزجـــر قومـــه عـن المنـديات وهـو أحمـق فـاجر
..... بـــراق قشـــاوات بهـــن العشـــائر
حلفـت لـه إن تـدلج الليـل لا يـزل أمامـك بيـت مـن بيـوتي سـائر[٢]

[١] الديوان: ١٥٩، ١٦٠.
[٢] السابق: ١٤٠، ١٤١.

وفي موضع آخر يتوجه بالهجاء لشخص يطلق عليه (الفتى مروان)؛ استهزاء به فهو رجل ناضج عمرا ولكنه ضحل الخبرة طائش لا يليق به إلا أن يكون فتى، وهجاؤه هنا يختلف عن هجاء أبي ثوبان؛ فيمتزج بالفخر وتعداد المآثر وربما يكون وراء ذلك بعد قبلي دفعه لذلك، إذ يقول بعد مقدمة غزلية:

خبرت أن الفتى مروان يوعدني فاستبق بعض وعيدي أيها الرجل
وفي يدوم إذا اغبرت مناكبه وذروة الكور عن مروان معتزل
فكتلة فرؤام من مساكنها فمنتهى السيل من بنيان فالحبل

وهكذا يتهكم بوعيد مروان طالبا منه التروي والأناة حتى يعرف من يتوعد؛ مترفعا عن الرد عليه؛ فليس أهلا لذلك، ويصفه بقوله:

مغمر العيش يأفوف شمائله تأبى المودة لا يعطي ولا يسل [١]

ومن النماذج التي نجدها في ديوانه أشعار في الهجاء لا نعرف الطرف المهجو؛ بل يذكر عمله أو صفته؛ فنقرأ مثلا هذه لأبيات في هجاء القيم على الماء دون أن نعرف من هو أو لأي قبيلة ينتمي أو دافع الهجاء، يقول:

من كل أشمط مذبوح بلحيته بادي الأذاة على مركوه الطحل
وقيم أمدر الجنبين منخرق عنه العباءة قوام على الهمل
ذب الغوالي حتى ما يطفن به صاب المفارق عن ذي بنة تفل[٢]

ونلحظ أنه حانق أشد الحنق على هذا القيم، لذا يتفنن بالسخرية والتهكم ورسم أقبح صورة له في شكله ورائحته، بل حتى بالماء الذي يحرسه؛ فالماء فاسد والرجل الذي

---

[١] الديوان: ٢٢١.
[٢] السابق: ٢٢٤.

يحميه ضخم البطن ممزق الثياب ذو رائحة نتنة.

ويذكر الرواة أن امرأة من بني نمير شديدة الحسن كانت ترحل مع الراعي إذا رحل وتحل إذا حل؛ فغار رجل منهم يقال إنه من قيس كبة؛ فقطع حزام ناقتها؛ فسقط هودجها وتعذبت وقاست؛ فقال الراعي هذه الأبيات متألما لما أصابها متغزلا بها، ومخاطبا هذا الشخص بالتهديد والوعيد، يقول أولا داعيا عليه بالبكاء كما أبكى هذه الحسناء:

بكت عين من أذرى دموعك إنما وشى بك واش من بني أخت مسرد
فلو كنت معذورا بنصرك طيرت صقوري غربان البعير المقيد
لظل قطامي وتحت لبانه نواهض ربد ذات ريش مسبد[1]

يتوجه بالدعاء على هذا الواشي أن يصيبه ما يحزنه ويبكيه، ويتهمه بقلة المروءة فهو ابن أخت مسرد والمسرد هي المرأة التي تخرز القرب؛ فكأنه بهذه الوشاية يفضح عيوب الناس لذلك لا مروءة فيه، وبعد الدعاء ينتقل للتهديد والوعيد مع الاعتذار لها بعدم قدرته على نصرتها مخافة العار عليها، أما لو استطاع ذلك لأطلق صقوره على هذه الغربان التي تعتدي على من لا يستطيع الدفاع عن نفسه، ونلحظ هنا دقة تصوير الشاعر وبعد دلالاته فشبه المرأة بالبعير المقيد الذي لا يستطيع الحركة والدفاع عن نفسه والرجل الجبان جعله كالغربان التي تقف وتنقر ظهر هذا البعير لأنها ضعيفة ولا تستطيع أن تعتدي إلا على الضعاف، وفي البيت الثالث صوره أيضا بصورة لا تقل ضعفا وهي النعام؛ بل فراخ النعام الصغير الذي لم ينبت ريشه بعد ولم يظهر منه سوى الزغب، وفي الحالتين صور الشاعر نفسه وقومه بالصقور القوية الشكيمة، وينتهي في البيت الأخير إلى هذه الصورة الساخرة مع الفحش وتناول العرض:

[1] السابق: ١٠٨، ١٠٩.

مربـع أعلـى حاجـب العـين أمـه شـقيقة عبـد مـن قطـين مولـد[١]

فينتهي إلى أن هذا الرجل عبد، أخواله عبيد إذن لا نسب له، وما فعله غير مستغرب عليه.

ويتكئ على التصوير الساخر القبيح لامرأة أيضا مجهولة، يصورها بقوله:

إنـي نـذير التـي ألقـت منيئتهـا علـى القعـود وحفتهـا بأهـدام
مـن المهيبـات مخضـرا مغابنهـا لـم تثقـب الجمـر كفاهـا بأهضـام[٢]

وهكذا يعمد إلى هذه الصورة المنتنة لامرأة مجهولة دون أن نعرف السبب أو الدافع فثيابها خلقة بالية، ورائحتها نتنة لا تعرف الاغتسال أو الطيب والبخور.

خامسا: هجاء القبائل:

تعرض الراعي في شعره لبعض القبائل المجاورة لقبيلته في نجد لأسباب اقتصادية تتعلق بالجوار وما يترتب عليه من خلافات حول الرعي والماء ونحوه من الأسباب التي كانت سائدة بين قبائل العرب منذ الجاهلية.

وهذا النوع من الخلاف يصور لنا الوجه الآخر لمعاناة القبيلة في المجتمع العربي، فهي تعاني الجوع والخوف، وهاتان الحالتان كان لهما تأثير كبير في تشكيل قيم المجتمع وعاداته ومفاهيمه، وأوجدتا قيما خاصة تتفق مع ما يعيشه الناس ومع ما يحلمون به؛ فالجائع يحلم بالكرم والمروءة والنجدة، والخائف يحلم بالشجاعة والعزة والمنعة والقوة والحكمة، وهذه القيم ألبسها الشعراء أنفسهم وأقوامهم مفاخرين، وانتزعوها من أعدائهم

[١] السابق: ١١٠.
[٢] السابق: ٢٦٢.

هاجين[١].

والقيم المرتبطة بالشجاعة تتكرر في هجاء القبائل التي تدخل حروبا فيما بينها، والقيم المرتبطة بالجوع تكون للقبائل التي يكون الصراع معها مرتبطا بتأمين الماء والرعي، ولذلك يركز الشاعر فيه على صفات اللؤم والبخل والدناءة، وعلى المستوى الأسلوبي يختلف عن هجاء القبائل التي يكون الصراع معها حربيا؛ فالهجاء هنا ليس فيه تعداد مناقب أو عرض للهزائم والمثالب، وليس فيه تهديد ووعيد، أو انتخاب لغوي أو بعد في الصورة.

وأكثر قبيلة تعرض لها بالهجاء قبيلة بني حمان[٢] التميمية؛ إذ هجاها في ثلاثة مواضع، ولكن هجاءه يأتي خفيفا سطحيا بأبيات قليلة، يكتفي في أحدها ببيت وواحد، يقول فيه متهما إياهم باللؤم:

فـــإن ألائـــمَ الأحيـــاء حـــي على أهـوى[٣] بقارعـة الطريـق[٤]

ويقول في موضع آخر:

تقـول ابنتـي لمـا رأت بعـد مائنـا وإطلابـه هـل بالسـبيلة[٥] مشـرب
فقلـت لهـا إن القـوافي قطعـت بقيـة خُـلّاتٍ بهـا نتقـرب
رأيـت بنـي حمـان أسـقوا بنـاتهم ومـا لـك فـي حمـان أم ولا أب

---

[١] الهجاء الفني في الشعر العربي، أبو القاسم أحمد رشوان: ٢.

[٢] هم بنو حمان بن عبد العُزَّى بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم (ابن حزم: ٢٢٠)

[٣] اسم ماء لبني حمان، جاء في اللسان: "أتاهم الراعي فمنعوه الورد "

[٤] الديوان: ٢٠٧.

[٥] موضع في أرض بني تميم لبني حمان منهم (معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر – بيروت ١٩٩٥م: ٣ / ١٨٧).

والهجاء هنا فيه لين قريب من العتاب يقوم على الاستفهام والحوار بينه وبين ابنته، يرسل من خلاله رسائل مبطنة، فلا يوجد ماء قريب منهم سوى ماء السبيلة وعلاقتهم مع أهل السبيلة طيبة لم يفسدها سوى الشعر؛ فيلقي باللوم على بعض الأبيات في إذكاء العداوات معهم، وربما يقصد قوله في أبيات أخرى:

إن علـــى أهـــوى لألأم حاضـــر حســـبا وأقـــبح مجلـــس ألوانـــا
قـــبح الإلـــه ولا أحاشـــي غيـــرهم أهـــل الســـبيلة مـــن بنـــي حمانـــا
متوســـدون علـــى الحيـــاض لحـــاهم يرمـــون عـــن فضـــلائها فضـــلانا
وبحســـب قومـــك إن شـــتوا مطلولـــة شـــرع النهـــار ومذقـــةٌ أحيانـــا[1]

فجمعوا بين اللؤم والقبح، ويدعو عليهم أن يبعدهم الله عن الخير، ويصورهم بصورة قبيحة، وهم متوسدون على الحياض حراسة لها من أفاضل الناس.

بنو عقدة [2]، وهجاهم لأنهم منعوه الرعي بأرضهم بقصيدة طويلة نسبيا تقارب الثلاثين بيتا، غير أنها تنصرف للوصف والغزل، ومنه ينطلق إلى هجاء بني عقدة والدعاء عليهم، ويبدأ بوصف ما فعلوه، وأنهم لم يراعوا الأرحام التي تجمعهم، واستبدلوا ذلك بإثارة الأحقاد والعداوات:

ولـو أنهـا أرض ابـن كـور تصـيفت بفيحـان مـا أحمـى عليهـا المراتعـا
ولكنهـــا لاقـــت رجـــالا كـــأنهم علـــى قـــربهم لا يعلمـــون الجوامعـــا
ولاقـــين مـــن أولاد عقـــدة عصـــبة علـــى المـــاء ينثـــون الـــذُّحول الموانعـــا

---

[1] الديوان: ٢٨٥.

[2] من بطون طيء، وهم ولد كعب بن الحارث بن كعب بن علة، أمهم عقدة بنت باهلة، بها يعرفون (ابن حزم: ٤١٦).

وما تفعلوه لن يجعلنا نخنع ونرتجي عطفكم؛ فإن تمنعونا أرضكم، ففي أرض الله متسع:

فقلنـــا لهـــم إن تمنعونـــا بلادكـــم نجد مذهبا في سائر الأرض واسعا
ويمـــنعكم مســـتن كـــل ســـحابة مصـاب الربيـع يتـرك المـاء ناقعـا
وبـرد النـدى والجـزء حتـى يغيـركم خريـف إذا مـا النسـر أصـبح واقعـا
وأمـــا مصـــاب الغاديـــات فإننـــا علـى الهـول نرعـاه ولـو أن نقارعـا
نجـــيٌ نميـــري عليـــه مهابـــة جميـــع إذا كـــان اللئـــام جنادعـــا

ويظهر سخط الشاعر الشديد من بني عقدة فيدعو عليهم بالحرمان من المطر، وتبرز روح التحدي عند الشاعر فسوف يجعل إبله ترعى من مطر الغداة حتى لو أدخله ذلك غمار الحرب بمجموعة من بني نمير لها هيبتها واجتماع كلمتها.

ومن القبائل التي هجاها أيضا قبيلة بني سعد[١]، وفي هجائهم يظهر سبب جديد بعيد عن الماء والمرعى وإن كان مرتبطا بالجوار؛ ذلك أن الراعي حسب رواية ابن سلام جاور بني سعد بن زيد مناة بن تميم؛ فنسب بامرأة منهم [٢]؛ "فلما بلغهم شعره أزعجوه وأصابوه بأذى؛ فخرج عنهم وقال فيهم "[٣]:

أرى إبلـــــي تكـــــالأ راعياهـــــا مخافـــة جارهـــا طبـــق النجـــوم
وقـــد جـــاورتهم فرأيـــت ســـعدا شـــعاع الأمـــر عازبـــة الحلـــوم
معـــاتيم القـــرى ســـرف إذا مـــا أجنـــت طخيـــة الليـــل البهـــيم

[١] بنو سعد بن زيد مناة بن تميم.
[٢] طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٥٠٤، وهي هند بني سعد تغزل بها في موضعين في الديوان: ٩٧، ١٩٣.
[٣] طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٥٠٥، الأغاني: ٢٤ / ١٧٦.

فـــأمي أرض قومـــك إن ســـعدا تحملـــت المخـــازي عـــن تمـــيم[١]

ولما اختلف السبب اختلف الرد وجاء قويا سلبهم كل فضيلة وألبسهم كل خزي، وقد مرت أبياته التي يهجو فيها بني سعد مع هجاء أوس بن مغراء القريعي وكانت أيضا مثل هذه الأبيات في التهجم والفحش والوصف بالهوان والحقارة.

ومن القبائل التي هجاها الراعي قبيلة قيس كبة[٢]،، وكالعادة يدور هجاؤها حول اللؤم:

قُبيِّلَـــة مـــن قـــيس كُبـــة ســـاقها إلـــى أهـــل نجـــد لؤمهـــا وافتقارهـــا
كزائـــدة مـــا بالأصـــابع حاجـــة إليهـــا ولا يخفـــى علـــى النـــاس عارهـــا
بـــأيّ رشـــاء يـــا ابـــن أربـــد ترتقـــي إلى الشمس إذ صامت وطال نهارها[٣]؟

والشاعر كما نلحظ في هجائه للقبائل يلح على صفة اللؤم مما يتناسب مع دوافعه الاقتصادية من هجائهم، واللؤم "ضد العتق والكرم، واللئيم الدني الأصل الشحيح النفس"[٤]، ولكن هذه اللفظة اكتسبت في البيئة الأموية دلالات أوسع تجمع بين الشح والجشع والذلة ودناءة الخلق والغدر[٥].

---

[١] الديوان: ٢٦١، ٢٦٢.

[٢] تنتسب القبيلة إلى قيس بن الغوث بن أنمار، من بني بجيلة، من كهلان: جد جاهلي أضيف اسمه إلى فرس له اسمها "كبة" فعرف بها هو ونسله، وكان من منازلهم تبالة(من قرى الطائف).(الأعلام: ٥/ ٢٠٨)

[٣] الديوان: ١٧٩.

[٤] اللسان، ابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م : ١٢ / ٥٣٠ (مادة لأم).

[٥] الراعي النميري: حياته وشعره: ٦٤.

ولعل خير ختام للهجاء أن نذكر هذه الأبيات الطريفة التي تعجب منها ابن عبد ربه:"وأعجب من هذا قول الراعي الذي هجا الخيال فقال"[١]:

طاف الخيال بأصحابي فقلت لهم أأمُّ شـــذرة زارتنـــا أم الغـــول
لا مرحبا بابنة الأقيال إذ طرقت كـأن محجِرهـا بالقـار مكحـول
سود معاصمها جعد معاقصها قد مسها من عقيد القار تنصيل[٢]

وهذه الأبيات مقدمة لقصيدة مديح؛ فجعلها في هجاء طارق الخيال وتصويره بصورة امرأة قبيحة.

[١] العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، شرحه أحمد أمين وآخرون، دار الكتاب العربي، بيروت: ٥ / ٣٣٨.

[٢] الديوان: ٢١٧.

الخاتمة:

وبعد هذه الوقفة مع شعر الراعي الهجائي تكشفت لنا جوانب كثيرة من شخصيته، واستنطقت أشعاره نفسيته وأهدافه ودوره في مجتمعه، ويمكن تلخيص الإجابات بالنقاط الآتية:

١- أستطيع بعد دراسة شاملة ومتأنية لشعر الهجاء عند الراعي أن أقرر أن الراعي لم يكن من شعراء النقائض ولم يكن يميل إلى شعر الهجاء،، فلم يكن يبادر بالهجاء أو يتحين الفرص للدخول في معركة النقائض، فغالبا ما يكون في موقف المدافع وليس المهاجم على الرغم من أن الدافع لدخول معركة النقائض كان قويا.

والدلالات كثيرة:

- أهمها أنه لم يرد على قصيدة جرير، وتحاشى الدخول في مناقضات معه، وآثر الاستسلام من أول جولة.
- أغلب شعره كان مقطعات لا تتجاوز أربعة أبيات أو قصائد قصيرة، وهي بعيدة عن معاني الهجاء التي انتشرت بين شعراء بني أمية؛ فكلها أبيات سريعة خالية من الاحتشاد الفني أو الذهني فالشاعر لا يجهد نفسه ويسلك أقصر الطرق، بعيدا عن الصورة البعيدة واللغة الصعبة التي نقرؤها في أشعار الوصف والمديح عنده.
- الشاعر لا يميل إلى الاحتجاج والجدال وكثرة الاستشهاد والرجوع للتاريخ، يستثني من ذلك نقائضه مع الأخطل؛ نظرا للخصومة القبلية المتأججة بين قبيلتيهما.

وذلك لا يعني أنه لم يكن يحسن الهجاء أو أن هجاءه كان عفيفا أو محتشما؛ فله أشعاره المتهتكة البذيئة حتى النساء لم تسلم منه؛ بل سلط سياطه عليهن وهتك سترهن.

٢- انتماء الراعي للطبقة الاجتماعية العليا ترك أثرا كبيرا في شعره الهجائي، في هجاء الشعراء بحسب طبقتهم، كما ظهر في لغته وأسلوبه، وفي اختيار المفردات التي توحي بالفوقية والتعالي.

٣- لشعر الهجاء عند الراعي وجهان؛ بحسب علاقة الهجاء بالقبيلة: فإذا كان للقبلية طرف في شعر الهجاء اتخذ الشعر وجهة قوية عميقة، وبرز شاعر الصورة وشاعر المكان كما عرف عنه، وإن كانت العلاقة بعيدة اتخذ الشعر وجها آخر وتغير المستوى الدلالي واللغوي لشعره؛ فاختفت وعورة اللغة وبعد الصورة...

وهذا يمثل شخصية الراعي التي تقدم مصلحة القبيلة على أي اعتبار آخر، حتى بالجوانب الفنية مما يعطي صورة لقيمة القبيلة في ذات الشاعر.

٤- شمل شعر الراعي الهجائي كل أنواع الهجاء؛ فتعلق بعضه بسلب الفضائل النفسية بالوصف بالهوان والدناءة وحقارة الشأن وتسجيل المخازي والمعايب وعار الهزائم، وتعلق بعضه الآخر بالسخرية والتهكم وتضخيم العيوب الشكلية، كما تضمن هجاؤه كثيرا من الإفحاش وتناول أعراض الآخرين وعوراتهم.

٥- سار على خطى القصيدة الجاهلية في الجمع بين الفخر والهجاء؛ فلم يكن الشعراء الجاهليون يفردون للهجاء قصائد مستقلة بل كان يأتي في ثنايا الفخر والحماسة، وهذا أمر طبيعي فبعد هجاء الخصم يدلف الشاعر إلى الافتخار بنفسه وقبيلته أو العكس[١].

[١] الهجاء من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي عبد العزيز الخويطر، حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق، جامعة الأزهر، عدد ٣٣ مجلد ١، ٢٠١٣م: ٤٩، ٥٠.

الشعر السياسي

تسع مفهوم الشعر السياسي ليشمل الشعر المتعلق بالسياسة بمفهومها الدقيق وهو فن الحكم، كما يشمل عند بعض الباحثين الشعر المتعلق بالقبيلة ، لكون القبيلة تشكل وحدة المجتمع العربي؛ وبذلك تشبه الدويلة إلى حد كبير[١].

وبهذا المفهوم الواسع يمكن القول إن الشعر السياسي يشكل قسمًا كبيرًا من شعر الراعي، ذلك أن كثيرا منه قد منحه للقبيلة، مدافعا عن مصالحها ، ناشرا مآثرها وأمجادها، ومحاربا كل من يعاديها، وبلا شك يعد الهجاء من أوسع أبواب الشعر السياسي القبلي، في الدفاع عن القبيلة والهجوم على أعدائها.

أما عند الحديث عن الشعر السياسي بمعناه الدقيق فلن نجد صورة للطرماح أو ابن الرقيات وغيرهم من شعراء الأحزاب الذين يتبنون فكره وروحه ويحولون شعرهم ساحة للجدل وعرض الحجج ؛ فالراعي لم يتبن موقفا حزبيا معينا، وإن كان يصنف ضمن الحزب الزبيري بالنظر إلى انتماء قبيلته حاله حال أفراد أي قبيلة؛ فعلى الرغم من تعدد الأحزاب السياسية للمجتمع الأموي ظل للقبيلة سيادة خاصة، وسيطرة حتى في التوجه لهذا الحزب أو ذاك؛ فالقبيلة هي المظلة الكبيرة التي يتحرك خلالها الشخص حتى في انتمائه الحزبي، ويمكن أن نستثني من ذلك حزب الخوارج الذي انعتق من سيطرة القبيلة.

وعند النظر في شعر المديح عند الراعي بحثا عن رؤيته السياسية بمعناها الدقيق نجد أنه لا يزال في إطار القبيلة ومصلحتها، وهو ما يتفق مع شخصية الراعي ومكانته عند قومه؛ فلا يخفى على أي مطلع دور الراعي القبلي مع بني نمير، وإحساسه بالمسؤولية تجاههم، والتعبير عن قضاياهم الاجتماعية والاقتصادية وهمومهم، والدفاع عن

[١] أدب السياسة في العصر الأموي: ٨.

حقوقهم ومصالحهم، كما لا يخفى دوره مع القبيلة الأم قيس؛ فقد كان يقوم بدور الدفاع ونشر المآثر والفخر، وهجاء أعدائها.

ومن الطبيعي أن يكون الموقف السياسي للراعي متسقا مع قبيلته قيس التي لم تكن على وئام مع الأمويين، وهنا يتأزم الموقف ويكون الشاعر في موقف صعب في الموازنة بين الميول السياسية لقيس وخلفيته الذهنية والنفسية تجاه الأمويين، وبين مصالح بني نمير التي سيخسرها بلا شك إذا صرح بالعداء ضد الحزب الحاكم.

إذن كيف خاطب الراعي خلفاء بني أمية ؟ وكيف عبر عن موقفه السياسي ؟ هل تملق الأمويين من أجل مصالحه ؟ أم خسر مصالحه وأعلن التمرد وصرح بالعداء وتصادم مع الحزب الحاكم في سبيل الإخلاص للقبيلة وشعور الطبقية والتعالي؟.

للإجابة على هذه التساؤلات والتعرف على موقفه السياسي وكيف عبر عن رؤيته السياسية نتوقف عند شعره الذي مدح فيه الأمويين؛ لأنه الشعر الذي حمل موقفه السياسي.

مدح الأمويين:

وشعر المديح عنده يدور في مجمله حول بني أمية خلفاء وأمراء وولاة، وعندما تقرأ هذه المدائح لا تجد فيها ما تعرفه عن المديح في الشعر العربي من مبالغة وإغراق في المديح وإسباغ صفات الكمال على الممدوح ؛ فعند الراعي خلا المديح من هذه السمات وغلبت عليه الروح السياسية والمصلحة القبلية وطبع بهذا الطابع فصارت حروفه لها مقاصد أخرى؛ فلم يكن يمدح ليعجب الممدوح وينال عطاءه بل كان يمدح لإيصال رسائل سياسية وأهدافا قبلية؛ فطبع مديحه بطوابع خاصة أبعدته في مجمله عما ساد في المديح التقليدي، حتى تخرج بعض القصائد من فن المديح إلى فن آخر.

ويمكن تلمس الأبعاد السياسية في شعر الراعي من خلال ما نجده في مديحه من التركيز على بعض الشخصيات الأموية المرتبطة بمواقف سياسية أكثر من الاهتمام بشخصية الممدوح، وكذلك من خلال سمات قصيدة المديح عنده وخلوها من المبالغة وأحيانا خلو بعض القصائد من المديح أصلا، إضافة لإكثاره من مدح الأمويين والقرشيين، والتركيز على الصبغة الدينية للحاكم الأموي، وفيما يلي تفصيل هذه الجوانب.

التركيز على مدح شخصيات أموية لأسباب تاريخية سياسية:

فعندما نقرأ مدائحه في بشر بن مروان أو عبد الملك نجده يذكر مروان أكثر منهما ويركز تحديدا على موقفه من الفتنة؛ إذ كان من الصحابة الذين دافعوا عن عثمان رضي الله عنه.

نقرأ مثلا قصيدته التي يمدح فيها بشرا، ينتقل بعد مقدمة طويلة إلى خطابه باسم بني أمية [١]:

رجوت بحورا من أمية دونها عدو وأركان من الحرب ترمح
وما الفقر من أرض العشيرة ساقنا إليك ولكني بقربك أنجح

يخاطبه باسم عشيرته (أمية) وكأنه يمثل الأمويين جميعا، وفي البيت الثاني يتحدث أولا بصيغة الجمع عن قبيلته ثم ينتقل إلى ضمير المخاطب، ويعود مرة أخرى إلى ضمير المتكلم، ثم إلى ضمير المخاطب، وهكذا يتنقل بين الضمائر، ليظهر التمازج والتداخل بين بشر وبني أمية، وبين الشاعر وقبيلته.

ويكتفي بعد ذلك بثلاثة أبيات يمدحه فيها بحسن الذكر والكرم والشجاعة ثم ينتقل إلى مدح أبيه:

---

[١] الديوان: ٦٤.

أبـوك الـذي نجـى بيثـرب قومـه وأنـت المفـدى مـن بنيـه الممـدح
إذا مـا قـريش الملـك يومـا تفاضـلوا بـدا سـابق مـن آل مـروان أقـرح
فـإن تـنْءِ دار يـابن مـروان غربـة بحاجـة ذي قربـى بزنـدك يقـدح

إذن مروان هو أفضل قريش سابق في حلبتهم، وبشر أفضل الأبناء، هذا الشبه بين الابن وأبيه، ونلحظ أنه يركز على موقف مروان وقت الفتنة، ويحاول أن يبرهن من خلالها على ولائه لبني أمية.

وفي قصيدة أخرى يمدح بشرا بعد أن ولاه عبد الملك العراق، وهي تختلف عن الأولى في أنه يطيل في مدحه، ولكنها تشابهها في الحديث عن موقف مروان من الفتنة[١]:

أبـوك الـذي آسـى الخليفـة بعـدما رأى المـوت منـه بالمدينـة وانيـا

وإن كان يكتفي بإشارات سريعة لموقف مروان في ثنايا مدحه لبشر فإن الأمر يختلف في القصائد التي يخاطب فيها الخليفة عبد الملك؛ إذ تخلو اللامية تماما من مدحه، وما فيها من مديح ينصرف إلى أبيه، إضافة إلى حديث مفصل عن موقفه من الفتنة:

وأبـوك ضـارب بالمدينـة وحـده قومـا هـم جعلـوا الجميـع شـكولا
قتلـوا ابـن عفـان الخليفـة محرمـا ودعـا فلـم أر مثلـه مخـذولا
فتصـدعت مـن بعـد ذاك عصـاهم شـقا وأصـبح سـيفهم مسـلولا
حتـى إذا اسـتعرت عجاجـة فتنـة عميـاء كـان كتابهـا مفعـولا
وزنـت أميـة أمرهـا فـدعت لـه مـن لـم يكـن غمـرا ولا مجهـولا

[١] السابق: ٢٩٦.

مـــروان أحزمهـــا إذا نزلـــت بـــه حـــدب الأمـــور وخيرهـــا مســـؤولا
أزمـــان رفـــع بالمدينـــة ذيلـــه ولقـــد رأى زرعـــا بهـــا ونخـــيلا
وديـــار ملـــك خربتهـــا فتنـــة ومشـــيدا فيـــه الحمـــام ظلـــيلا

إن الشاعر هنا كما نرى لا يكتفي بإشارة سريعة لمروان بن الحكم ودفاعه عن عثمان بل يسرد جميع الأحداث التي دارت بعد مقتل عثمان والفتنة التي حدثت ودوره في كل ما حدث متقربا بكل ذلك لعبد الملك، متخذا من ذلك وسيلة لإقناعه بموالاته لبني أمية وإيمانه بأحقيتهم بالخلافة، ودورهم في جمع كلمة المسلمين، لعل ذلك يكون سببا في أن يحقق مطالبه وينصف قومه من ظلم الولاة.

ويريد من ذلك أيضا تحفيز الخليفة للاقتداء بأبيه، وأن يكون حازما قويا مع الولاة كما كان موقف أبيه الذي انتصر لعثمان الخليفة المظلوم فحري بك يا عبد الملك أن تنتصر لهؤلاء المظلومين الذين قصمت ظهورهم جباية ولاتك،"ولا يخفى أن هذا التذكير بمثل تلك الحادثة التاريخية يمثل مسألة حساسة من شأنها أن تجعل الخليفة أكثر تقبلا من الناحية النفسية، وأوفى استعدادا من الناحية الذهنية لا سيما أن مثل ذلك القياس من شأنه أن يجسم المفهوم ويقرب المعنى ولو بصورة ضمنية مضمرة"[١].

والشاعر عندما يمدح البيت المرواني يمدح مروان بن الحكم فقط ويخص موقفه بالمدينة، أما عندما يمدح من البيت السفياني فإنه يمدح معاوية وأبا سفيان ويصل أيضا إلى حرب.

نقرأ مثلا قوله في مدح يزيد بن معاوية:

[١] الراعي النميري شاكيا محاجا، أحمد الخصخوصي، حوليات الجامعة التونسية، العدد ٥٥، ٢٠١٠م: ٦٣.

وإنـي وذكـراي ابـن حـرب لعائـد لخلـة مرعـى الأمانـة واصـل
أبـوك الـذي أجـدى علـي بنصـره وأسـكت عنـي بعـده كـل قائـل
وأنـت امـرؤ لابـد أن قـد أصـبتني بموعـدة ديـن عليـك وعاجـل
وقـد علمـت قـيس وأفنـاء خنـدف ومـذحج إذ وافيـتهم فـي المنـازل
ثنـائي علـيكم آل حـرب ومـن يمـل سـواكم فـإني مهتـد غيـر مائـل[1]

يتضح هنا ما ذكرته سابقا عن أن الشاعر يمدح الآباء تقربا للأبناء، فكما قربني ونصرني أبوك لاشك أنك سائر على الطريق ذاته، ويشجعه للسير على طريق أبيه بالتأكيد على ولائه لبني أمية وثنائه على آل حرب.

وفي قصيدة أخرى يمدح عبد الله بن يزيد بن معاوية يكرر ذات المدائح لآل أبي سفيان وآل حرب وأمية:

لا يبلغ المدح أقصى وصف مدحكم ولـم ينـل مثـل مـا أدركـتم أحـد
لا يفقـد النـاس خيـرا مـا بقيـت لنـا والجـود والعـدل مفقـودان إن فقـدوا
حتـى أنيخـت لـدى خيـر الأنـام معـا مـن آل حـرب نمـاه منصـب حتـد
أمسـت أميـة للإسـلام حائطـة وللقبـيض رعـاة أمرهـا الرشـد

نلحـظ الصـيغة الجمعيـة فـي مـديح الراعـي، ممـا يعطـي دلالات علـى الأبعـاد السياسـية فـي المـديح أكثـر مـن الأهـداف الذاتيـة؛ فالمـديح هنـا محاولـة إقنـاع بنـي أميـة بالولاء والقرب لتحقيق أهداف عامة عند الشاعر تتمثل في مصالح القبيلة وليست مصالح خاصة به.

[1] الديوان: ٢٣٠.

سمات القصيدة السياسية عند الراعي وخلوها من المديح:

من السمات المهمة التي تبرز شخصية الراعي السياسية وانتمائه لقيس، أن خطابه لخلفاء بني أمية يختلف عن غيره من الشعراء فلا تشعر أن الشاعر يلقي القصيدة في حضرة خليفة، أو أنه يشعر بهيبة السلطان، ولذلك تحس به في بعض المواضع مهاجما وليس مادحا.

والراعي لم يمدح من خلفاء بني أمية إلا خليفتين، أو لم يصلنا من شعره إلا مدحه ليزيد بن معاوية، وخطابه لعبد الملك بن مروان، واحد من البيت السفياني قبل موقعة مرج راهط وقبل الصدام العلني بين الأمويين وقيس، وآخر بعد الموقعة وفي ذروة العداء بينهما، وبلا شك سوف يتأثر شعره تبعا لحدة الصراع، وفي الحالتين ستترك أصوله القبلية بصمتها في شعره ولذلك نجده ينضح بروح التحامل والمجاملة، وتقرأ بين حروفه روح الهجوم والعداء؛ فعندما نقرأ شعره الذي يمدح فيه يزيد أول ما يلفت نظرك أن الأبيات التي يخصصها للمديح تشكل جزءا يسيرا من القصيدة؛ فجل القصيدة ينصرف للغزل والوصف أما أبيات المديح فقليلة جدا؛ ففي القصيدة الأولى لم يخصص سوى ثمانية أبيات للمديح من أربعين بيتا تنصرف لوصف الناقة والتغزل، أما أبيات المديح فهي ليست مديحا في الحقيقة،وتخلو من أي معان سياسية؛بل تنصرف إلى التكسب وطلب النوال [1]:

ولن يدرك الحاجات حتى ينالها إلى ابن أبي سفيان إلا مخاطر
فإن لنا جارا علقنا حباله كغيث الحيا لا يجتويه المجاور

وفي القصيدة الأخرى أيضا لا يختلف الأمر كثيرا؛ إذ تبلغ ثمانية وأربعين بيتا لا يخصص منها للمديح سوى ثمانية أبيات، وإن كانت تختلف عن الأولى في غلبة الجانب

[1] السابق: ١٣٤.

السياسي عليها، ومديح معاوية وآل حرب ثم يزيد[١]:

ثنائي عليكم آل حرب ومن يمل سواكم فإني مهتد غير مائل
رأتك ذوو الأحلام خيرا خلافة من الزائغين في التلاع الدواخل
وأجزأت أمر العالمين ولم يكن ليجزئ إلا كامل وابن كامل
إليك ابتذلنا كل أدماء حرة وأعيس مشاء أمام الرواحل

وهكذا نلحظ قصر نفسه في المديح، فسرعان ما انتقل لوصف ناقته وكأنه يهرب من المديح ولا يريد الاستمرار فيه فهرب إلى الوصف.

وإن كانت قصائده في خطاب يزيد تخلو من المديح فإن قصائده في عبد الملك لا تخلو من المديح فحسب بل يتخللها بعض الهجاء والهجوم، ولا ريب في ذلك إذا تذكرنا أنها قيلت بعد مرج راهط وبعد العداء السافر بين قيس والأمويين، بل بعد ما تعرض له بنو نمير من ظلم وقسوة على يد ولاته؛ فجاء شعره أقرب إلى فن الشكوى منه إلى المديح، وخطاب الخليفة يحمل الكثير من الحدة وروح التحامل والمجاملة، وقد كان الشعور متبادلا؛ فكما يذكر الرواة أن عبد الملك كان "ثقيل النفس عليه"[٢]؛ لأن قيسا كانت زبيرية، وعندما وفد عليه شاكيا جور الولاة على قومه، لم يخاطبه خطاب المحكوم للحاكم بل خطاب الند للند مقدما حججه وأدلته غير آبه لمقام الخلافة، على الرغم من حاجته وما يقتضيه مقام الحاجة من التذلل والتقرب، إلا أن شاعرنا القيسي طغى عليه انتماؤه القبلي وروح الطبقية التي كان يستشعرها وجعلته يخاطب الخليفة وكأنه أحد الوزراء أو المكلفين، نراه يخاطبه في لاميته الشهيرة بعد أن قدم حججه بصيغة الأمر[٣]:

---

[١] السابق: ٢٣٠.
[٢] طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٥٠٦.
[٣] الديوان: ٢٤٧.

أولـــي أمـــر الله إنـــا معشـــر حنفـــاء نســـجد بكـــرة وأصـــيلا

ويتكرر الخطاب في أكثر من بيت، بولي أمر الله مما يسوغ لنفسه أن يلقي على الخليفة الأمر أو يتوجه بأمر مباشر للخليفة:

فـــادفع مظـــالم عيّلـــت أبناءنـــا عنـــا وأنقـــذ شـــلونا المـــأكولا

وينتهي به المطاف إلى التهديد والعصيان:

ولـــئن ســـلمت لأدعـــونَّ لظعنـــةٍ تـــدع الفـــرائض بالشُّـــريفِ قلـــيلا

وهذا البيت أثار الخليفة فقال له:"وأين من الله والسلطان لا أم لك ؟ فقال: يا أمير المؤمنين: من عامل إلى عامل، ومصدق إلى مصدق؛ فلم يحظ ولم يَحْلَ منه بشيء"[١]، ومن المؤكد أن وراء هذه الحدة في الخطاب أسبابا شخصية وقبلية، ولا تحمل بعدا سياسيا فحسب؛ فلا ننسى أن شاعرنا سيد في قبيلة عظمى، وهذا سوف يلقي بظلاله على خطابه للأمويين، وستكون هذه الخلفية القبلية حاضرة في ذهنه، وفي لغته وعباراته.

وقدم الراعي لعبد الملك في السنة التالية في قصيدة أخرى لذات الغرض وهو الشكوى والبحث عن حقوق قومه، ولم يختلف الخطاب كثيرا؛ إذ اتسم بالحدة والقوة وليس الولاء والمحبة، نقرأ مثلا قوله[٢]:

إن الخلافـة مـن ربـي حبـاك بهـا لـم يصـفها لـك إلا الواحـد الصـمد
القـابض الباسـط الهـادي لطاعتـه فـي فتنـة النـاس إذ أهـواءهم قـدد
أمـر رضـيت لـه ثـم اعتمـدت لـه واعلـم بـأن أمـين الله معتمـد

[١] طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٥١٠، ٥١١.
[٢] الديوان: ٨٧.

إن قارئ هذه الأبيات يعجب من حدة الخطاب الذي يتوجه به شاعر لخليفة، والجرأة التي تجعله يحاج الخليفة بهذه الحجج القوية، فتجعله ثقته يصرح للخليفة بأن الحال التي هو عليها هي هبة من الله وكما أعطى يستطيع أن يسترد، لذلك أد حق الأمانة وكن أهلا لها.

وفي القصيدة أبيات أقل حدة مما سبق، مثل قوله[١]:

أنت الحيا وغياث نستغيث به لو نستطيع فذاك المال والولد

وهذا ما جعل عبد الملك يقول:"أنت العام أعقل منك عام أول "[٢]، واستجاب لمطالبه.

وهكذا لم يمدح الراعي إلا هذين الخليفتين؛ فلا نجد في ديوانه مدحا لمعاوية، أو مروان بن الحكم إلا بعد وفاتهما، كما لم يمدح الخلفاء المتأخرين، وربما بعد موقفه مع جرير وبعد صلح القيسيين مع الأمويين، لم يجد دافعا أو رغبة في الوفود على الخلفاء وعاد إلى ديار بني نمير واعتزل السياسة.

التركيز على صفات الإمامة والخلافة:

ويغلب هذا الوصف على خطابه لعبد الملك فنسمعه مرة يقول في محادثة بينه وبين خليدة ابنته التي كانت خائفة عليه:

وقلت ما لامري مثلي بأرضكم دون الإمام وخير الناس متأد[٣]

---

[١] السابق: ٨٨.

[٢] طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٥١٢، ابن عساكر: ٣٨ / ١٨٨.

[٣] الديوان: ٨٦.

ويكثر عنده وصفه بالخليفة:

إن الخلافة من ربي حباك بها لم يصفها لك إلا الواحد الصمد[١]

وفي صيغة أكثر تودداً ومدحاً:

أنت الخليفة حلمه وفعاله وإذا أردت لظالم تنكيلا[٢]

ومثل هذه الأساليب في خطاب عبد الملك تقوم بدور كبير في الأسلوب الحجاجي للتأثير عليه وتحميله مسؤولية تخليص قومه من الظلم الواقع عليهم وتذكيره بأنه يتولى منصبا سياسيا دينيا يحتم عليه نصرة المظلوم، وإضافة إلى هذه الدلالات فإنها قد تحمل دلالات سياسية من بعيد، وكأن الشاعر بذلك يريد أن يعلن الاعتراف والإذعان بالخلافة له ويعطي خلافته صبغة دينية فهو خليفة الله وأمير المؤمنين، ليتقرب للخليفة ويمحو ما قد يظنه به.

وأشار مرة إلى الخلافة في مدح يزيد في قوله[٣]:

رأتك ذوو الأحلام خيرا خلافةً من الزائغين في التلاع الدواخل

ومن الأبعاد السياسية التي يمكن أن نلحظها أخيرا في قصائد المديح عند الشاعر الإشارة إلى قريش في شعره، ومعروف أن قريشا هي القاسم المشترك بين الأمويين والزبيريين؛ فكلا الحزبين يرى أن الخلافة يجب ألا تخرج من قريش، ولذلك يحتمل أن يكون هذا هو السبب فيما نجده من ذكر لقريش في شعره، نحو قوله مخاطبا بشر بن مروان[٤]:

---

[١] السابق: ٨٧.
[٢] السابق: ٢٤٧.
[٣] السابق: ٢٣٠.
[٤] السابق: ٦٥.

إذا ما قريش الملك يوما تفاضلوا بدا سابق من آل مروان أقرح

وفي خطابه لعبد الملك يقول[١]:

وإذا قريش أوقدت نيرانها وثنت ضغائن بينَها وذُحولا
فأبوك سيدها وأنت أميرها وأشدها عند العزائم جُولا

وهكذا تحمل قصائد المديح عند الراعي رسائل سلام وتصالح مع الأمويين، وكأن الشاعر يحاول من خلالها رفع الراية البيضاء، أو محو جوانب من التاريخ الأسود الذي يسكن أذهان الأمويين تجاه القبيلة وشعرائها؛ ولذلك نستطيع بكل اطمئنان القول إن مدائحه تنساق للماضي، أكثر من اهتمامها بشخص الممدوح، ولها دوافع وأهداف بعيدة تختلف عن كثير من شعر المديح؛ فالشاعر لا يمدح ولا يخاطب الخلفاء لمصالحه الخاصة بل لمصلحة قبيلته وقومه ؛ ولذلك تغلب على مدائحه الأبعاد السياسية التاريخية.

ولم يكتف الشاعر بالرسائل السياسية المبطنة بل جاءت بعض رسائله صريحة مباشرة في محاولة توضيح موقفه السياسي وتصحيحه، ومن ذلك ما نجده في بعض الأبيات من النفي المباشر للخيانة أو رفض موقف قبيلته:

أ / نفي الخيانة:

الشاعر في جميع شعره لم يصرح بميله السياسي الخاص، لا نجد انتماء للزبيريين، ولا عداوة صريحة للأمويين، لكنه تحت الميل السياسي القبلي الذي يندرج تحته حاول أن يثبت عكسه أمام خلفاء بني أمية وينفي عن نفسه الولاء لغيرهم، ولا نتعجب من ذلك إذا عرفنا أن بعض شعراء الأحزاب تخلوا عن مبادئهم ولم يفوا لأحزابهم وهم قد وهبوا شعرهم لحزبهم وتحت الضغط اضطروا مذعنين لبني أمية وعلى رأسهم شاعر الحزب

[١] السابق: ٢٥٠.

الزبيري عبيد الله بن قيس الرقيات، فكيف بنا بشاعر مثل الراعي لم تكن له ميول سياسية صريحة لا عجب أن يبرهن في أكثر من مناسبة على أنه لم يكن مواليا لحزب معين، وبمعنى أدق لم تكن له أهواء سياسية.

ولذلك كان في خطابه لعبد الملك يحاول أن يقدم ما أمكنه من الإثباتات لتصحيح وجهة نظر الخليفة حوله وحول قبيلته، لنسمع هذه الكلمات التي تبلور نظرته السياسية بشكل مباشر دون حجب وقيود في ملحمته الشهيرة:

إني حلفت على يمين برة لا أكذب اليوم الخليفة قيلا
ما زرت آل أبي خبيب[1] وافدا يوما أريد لبيعتي تبديلا
ولا أتيت نجيدة بن عويمر أبغي الهدى فيزيدني تضليلا
من نعمة الرحمن لا من حيلتي إني أعد له علي فضولا
أزمان قومي والجماعة كالذي لزم الرحالة أن تميل مميلا
وتركت كل منافق متقلب وجد التلاتل دينه مدخولا[2]

إذن الشاعر يقسم يمينا صادقة مغلظة أنه لم يكن يوما مع أصحاب الأهواء والنزعات، لم يكن من أصحاب الهوى السياسي، لم يخن بني أمية، لم يكن مع الزبيريين ولا الخوارج، لم ينضو تحت لواء المنافقين، ويعطي المعنى أبعادا دينية فاستقامته بفضل من الله والاستقامة هي الرضى بحكم الأمويين، والانضواء تحت غيرهم هو الضلال والنفاق، ونلحظ أنه يعتذر عن قومه، ويرى أن ما مروا به من تأييد لابن الزبير كانت مرحلة وانتهت.

---

[1] لا نجد في ديوان الراعي ذكرا لابن الزبير سوى في هذا الموضع.
[2] الديوان: ٢٤٩، ٢٥٠.

وفي خطابه ليزيد بن معاوية أيضا يكرر الولاء لبني أمية ويشهد قبائل العرب على صدقه، وأن ذلك ما عرف عنه:

وقد علمت قيس وأفناء خندف ومذحج إذ وافيتهم في المنازل
ثنائي عليكم آل حرب ومن يمل سواكم فإني مهتد غير مائل[١]

إذن يشهد جميع القبائل على صدقه، ويرى طريق الولاء لبني أمية الذي يسلكه هو طريق الهداية والصواب.

وفي ديوانه بيت واحد جاء فاضحا للحقيقة غير المعلنة عندما يقول مصرحا وقد يكون جزءا من قصيدة مفقودة، يقول في البيت[٢]:

بني أمية إن الله ملحقكم عما قليل بعثمان بن عفان

إن هذا البيت يأتي وحيدا لا ثاني له فيما وصلنا من شعر الراعي، المرة الوحيدة التي يصرح فيها بالعداء ويهاجم بني أمية هجوما مباشرا.

٢ / رفض موقف القبيلة:

والشاعر لا يكتفي بالتعبير عن عدم مشاركته بموقف القبيلة بل يعبر عن عدم رضاه عن موقفها، وأنه لو كان موجودا حينها لحاول أن يغير مسار الأمور.

يقول في قصيدته التي يمدح فيها بشر بن مروان:

فلو كنت من أصحاب مروان إذ دعا بعذراء يممت الهدى إذ بدا ليا
على بردى إذ قال إن كان عهدهم أُضيع فكونوا لا علي ولا ليا

---

[١] السابق: ٢٣٠.

[٢] السابق: ٢٧٠.

ولكنني غيبت عنهم فلم يطع رشيد ولم تعص العشيرة غاويا[١]

والشاعر هنا لا يعتذر لنفسه أو يتملص من موقف قبيلته؛ بل يحاول الاعتذار لقومه أمام بني أمية، كما يقول ابن سلام مقدما لهذه الأبيات:"وقد قال في مديحه بشر بن مروان في كلمة يعتذر من تزبر قومه..."[٢]، وهنا تصريح وبلورة كاملة للموقف السياسي للراعي؛ فيحاول أن يفتح صفحة جديدة بعد أن صالح عبد الملك زفر بن الحارث و يعتذر لقومه عما سلف، يحاول أن يعيد المياه لمجاريها، ولذلك يعمد الراعي إلى التخفيف من شأن ما حدث؛ فهو أمر عارض لا يقلل من الصفاء الطويل بين القيسيين والأمويين:

فإن يك سوق من أمية قلصت لقيس بحرب لا تجن المعاريا
فقد طال أيام الصفاء عليهم وأي صفاء لا يحور تغاويا[٣]

يؤكد أن الخلاف بين الأمويين والقيسيين ليس خلافا جذريا، ويستمر في الحديث عن يوم عذراء متحسرا على ما حدث في ذلك اليوم وأن أطراف النزاع فيه لم تكن بينهم عداوات:

وكم من قتيل يوم عذراء لم يكن لصاحبه في أول الدهر قاليا

---

[١] الديوان: ٢٩٦.
[٢] طبقات فحول الشعراء: ٢ / ٥٠٦.
[٣] الديوان: ٢٩٦.

وفي الختام:

يمكن القول إن الشعر السياسي كشف شخصية الراعي في جوانبها المتعددة:

- الشخصية التي تقدم مصلحة القبيلة على أي اعتبار آخر وتشكيل موقفه السياسي بما يتوافق معها، ظهر ذلك مثلا في قدوم الراعي على عبد الملك من أجل مصلحة قبيلته على الرغم من عدم رغبته بذلك، ويتضح التحامل على الذات في أنه لم يطلب مصلحة شخصية بل اكتفى بإنصاف قومه.
- ظهرت الطبقية التي كان يعيشها الشاعر، وتركت أثرا واضحا في شعره السياسي، بدا ذلك من خلال طابع الفخر وروح الندية التي كانت تفيض فيها أبياته عند خطاب الخلفاء والممدوحين.
- الشخصية المسالمة للراعي تظهر مرة أخرى في موقفه السياسي وذلك في إيثار المسالمة مع بني أمية وتجنب الصدام معهم.

ويتلخص موقفه السياسي بالوسطية؛ فقد اختار موقفا وسطا؛ إذ لا يستطيع الوقوف ضد الأمويين وهم أصحاب الغلبة والحكم والكلمة والمصلحة تقتضي أن يكون معهم، مصلحة العشيرة الاقتصادية والاجتماعية هي مع بني أمية وليست مع الزبيريين ولذلك يتملص الراعي من هوى القبيلة الأم ويغلب مصلحة العشيرة، ويحاول التقرب من بني أمية مجاملا قدر المستطاع بالقسم والحلف ما أمكنه السبيل، لكن ذلك لا يعني التملق لبني أمية والمبالغة في مديحهم أو أنه كان خانعا أمامهم.

ومما يدل على حرص الشاعر على الوسطية في موقفه السياسي أنه تحاشى مدح ثوار قيس؛ فلا نجد في ديوانه مدحا لزفر بن الحارث أو عمير بن الحباب أو الجحاف بن حكيم السلمي ممن خرجوا على بني أمية وأعلنوا العصيان، وحتى في شعر الهجاء كان يفتخر بأيامهم على تغلب لكنه كان حريصا على عدم مدح أشخاصهم؛ ففصل بين الفخر على تغلب والإشارة لخروجهم على الأمويين وتمردهم؛ لأنه لا يريد أن يعلن العداء والخروج عن الطاعة.

المصادر والمراجع:

أولا: المصادر:

- الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، شرح أ. علي مهنا، أ. سمير جابر، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ _ ١٩٩٢م.
- شرح ديوان حماسة أبي تمام المنسوب لأبي العلاء المعري، تحقيق حسين محمد نقشة، دار الغرب الإسلامي بيروت ١٩٩١ م _ ١٤١١ هـ.
- تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر، دراسة وتحقيق عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م.
- خزانة الأدب، البغدادي، ت عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ _ ١٩٨٦ م.
- ديوان الراعي النميري، ت د. محمد نبيل طريفي، دار صادر _ بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠١٢م.
- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، ت أحمد شاكر، دار المعارف.
- طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي، شرح محمود محمد شاكر، شركة القدس، القاهرة.
- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ _ ١٩٩٠م.
- معجم البلدان، ياقوت الحموي، دار صادر – بيروت ١٩٩٥ م.
- جمهرة أنساب العرب، لابن حزم الأندلسي، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة.
- العقد الفريد، ابن عبد ربه الأندلسي، شرحه أحمد أمين وآخرون، دار الكتاب العربي، بيروت.
- تاج العروس، الزبيدي، تحقيق إبراهيم الترزي، دار إحياء التراث العربي، ١٣٨٥ هـ _ ١٩٦٥م.
- كتاب فحولة الشعراء، الأصمعي، قدم له د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، الطبعة الأولى ١٣٨٩ هـ _ ١٩٧١ م.

- أنساب الأشراف، البلاذري، تحقيق د. سهيل زكار ود. رياض زركلي، دار الفكر، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ _ ١٩٩٦ م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، النويري، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت ، الطبعة الأولى ٢٠٠٤ م _ ١٤٢٤ هـ.
- شعر الأخطل، صنعة السكري، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الفكر، بيروت _ دمشق، الطبعة الرابعة ١٤١٦هـ _ ١٩٩٦م.
- شرح ديوان الحماسة، التبريزي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي بالقاهرة.
- ديوان الراعي النميري، شرح د. واضح الصمد، دار الجيل، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ _ ١٩٩٥م.

ثانيا: المراجع:

- اتجاهات الشعر في العصر الأموي، د. صلاح الدين الهادي، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ _ ١٩٨٦ م.
- الأدب الأموي، د. خليل أبو ذياب، دار عمار _ عمان، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ_ ٢٠٠٦ م.
- أدب السياسة في العصر الأموي، د. أحمد محمد الحوفي، دار القلم – بيروت.
- الأعلام، الزركلي، دار العلم للملايين _ بيروت، الطبعة الثانية عشرة ١٩٩٧م.
- التطور والتجديد في الشعر الأموي، د. شوقي ضيف، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثانية عشرة ٢٠٠٨م.
- العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الحادية عشرة.
- الدولة الأموية، د. يوسف العش، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ _ ١٩٨٥ م.

ثالثا: الرسائل العلمية:

- الراعي النميري: حياته وشعره، علي المحاسنة، رسالة ماجستير، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة اليرموك، ١٩٨٦م.

رابعا: المقالات:

- الهجاء الفني في الشعر العربي، أبو القاسم أحمد رشوان، مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة، العدد ١٨، ١٩٩٥م.
- الراعي النميري شاكيا محاجا، أحمد الخصخوصي، حوليات الجامعة التونسية، العدد ٥٥، ٢٠١٠م.
- الهجاء من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموي: نظرة في طبيعة الفن وتراوحه بين القبلية والإسلام والسياسة، عبد العزيز الخويطر، حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق، جامعة الأزهر، عدد ٣٣ مجلد ١، ٢٠١٣م.